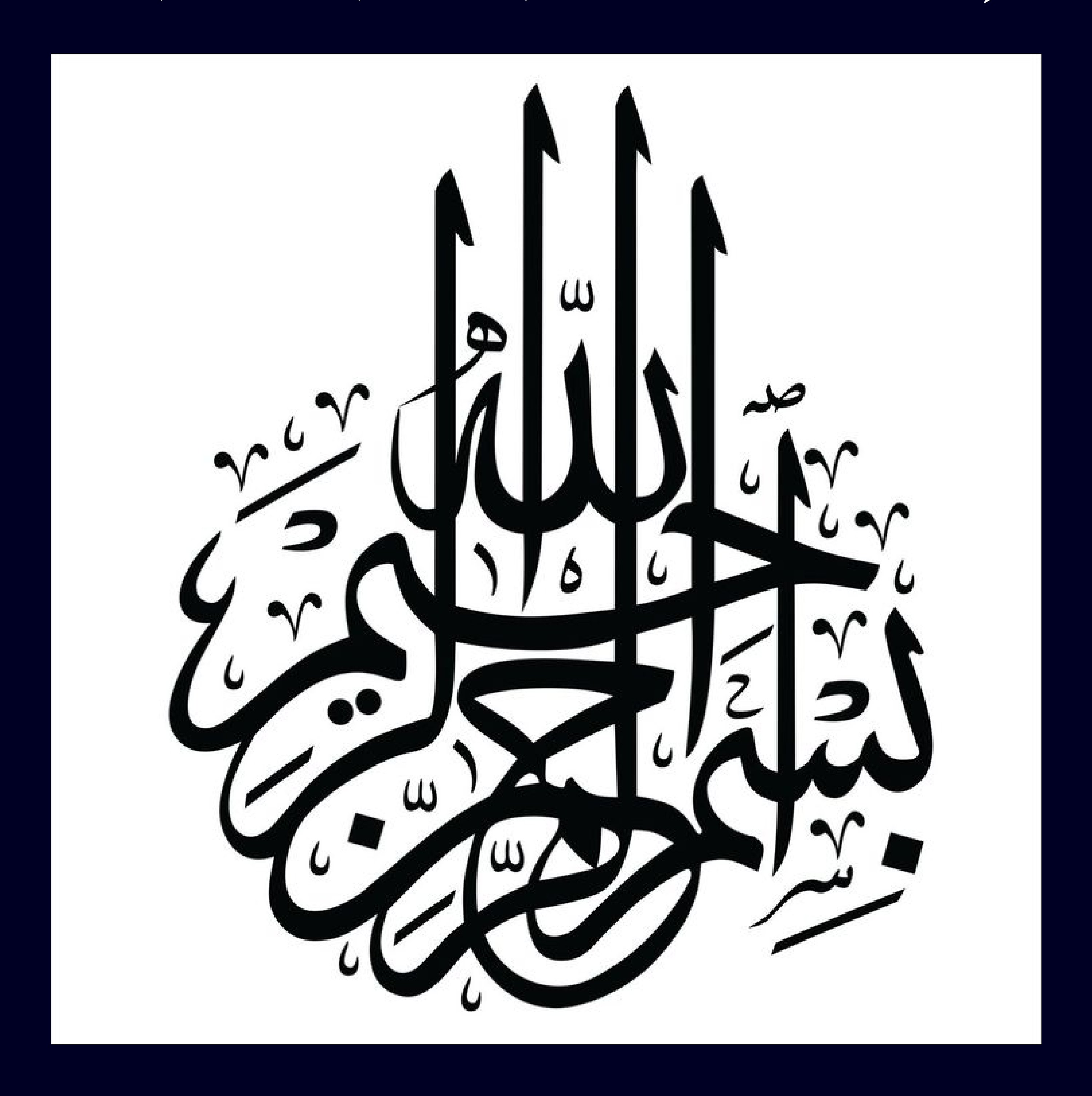


❁❁❁ تهذيب تاريخ ابن كثير❁❁❁
❁❁❁❁(البداية والنهاية)❁❁❁❁
❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

العامل إلى الله أكرم بن العيد
بن النّوري بلخيري

الإصدار الأوّل

اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيد



الجزء الأوّل

اَللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيد

خطبةُ الكتاب

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللّه من شرورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهده اللّهُ فلا مُضِلَّ له ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريكَ له ولا نظيرَ له ولا مثالَ له، وأشهدُ أنّ سيّدَنا ونبيَّنا وحبيبَنا وعظيمَنا مُحمَّدًا عبدُ اللّه ورسولُه وصَفْوتُه مِن خَلْقِه وأمينُه على وَحْيِه ونَجِيبُه من عبادِه، صلّى اللّه تعالى عليه وعلى آله الطَّيّبِين الطَّاهرين وصَحابتِه المُبارَكِين المَيامِين وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا. عبادَ اللّه، أُوصِيكُم ونفسِي الخاطئةَ بتقوى اللّه العظيمِ ولزومِ طاعتِه كما أُحَذِّركم وأُحَذِّر نفسي من عِصْيانِه سبحانَه ومُخالَفةِ أمرِه لقوله جَلَّ مِن قائِل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ﴾ [فصّلت :٤٦]

ذِكْرُ أخبار العرب

إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام. والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل أسماعيل، ومن العرب العاربة ؛ عادٌ وثمودُ وطَسْمٌ وجَديسٌ وأُمَيمٌ وجُرهُمٌ والعماليقُ وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله. وكل هؤلاء كانوا قبل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وفي زمانه أيضا. فأما العرب المستعربة، وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأما عرب اليمن وهم حِمْيَرُ فالمشهور أنهم من قَحْطانَ واسمه مُهَرّم. وذُكِرَ أنهم كانوا أربعة إخوة ؛ قحطانُ وقاحِطٌ ومِقْحَطٌ وفالِغٌ.

الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليَمَنِ وغيرهم ليسوا من سُلالة إسماعيل، وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين ؛ قحطانيةٍ وعدنانيةٍ. فالقحطانية شعبان ؛ سَبأٌ وحَضْرَمَوْتُ، والعدنانية شعبان أيضا ؛ ربيعة ومُضَرُ ابنا نزار بن مَعَدّ بن عدنان. والشعب الخامس، وهم

قُضَاعة، مُخْتَلَفٌ فيهم. فقيل إنهم عدنانيون، وعليه الأكثرون ؛ قاله ابن عبد البَرِّ. ويقال إنهم لم يزالوا في جاهليَّتهم وصدر الإسلام ينتسبون إلى عدنان. والقول الثاني على أنهم من قَحْطَانَ. وهو قول ابن إسحاق والكلبيّ وطائفة من أهل النّسب. قال ابن إسحاق ؛ وهو قُضَاعة بنُ مالكٍ بنِ حِمْيَرَ بنِ سَبَإٍ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعْرِبَ بنِ قَحْطَانَ.

وقال محمد بنُ سلامٍ البصريّ النَّسَّابَةُ : العرب ثلاث جراثيمَ ؛ العدنانية والقحطانية وقضاعة.

قال علماء النسب : يقال ؛ شعوب ثم قبائل ثم عمائر ثم بُطون ثم أفخاذ ثم فَصائل ثم عشائر. والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء. ولنبدأ أولا بذكر القحطانية ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية، وما كان من أمر الجاهلية، ليكون ذلك متصلا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، إن شاء الله وبه الثقة.

قال السُّهَيْليّ : وقحطان أول من قيل له : أَبَيْتَ اللعن، وأول من قيل له : أَنْعِمْ صباحا. وقال الإمام أحمد عن ذي مِخْبَرٍ أن رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، قال : كان

هذا الأمر في حِمْيَرَ فنزعه الله منهم فجعله في قريش (و س ي ع و د إ ل ي ه م). قال عبد الله ابن الإمام أحمد : وكذا كان في كتاب أبي مقطّعا يعني < وسيعود إليهم >.

قصة سبأ

قال الله تعالى في سورة سبإ : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

صدق اللّه العظيم.

قال علماء النّسب : اسم سبإٍ عبدُ شمس بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قحطانَ. قالوا : وكان أول من سبى في العرب، فَسُمِّيَ سبأً لذلك. وكان يقال له الرَّائِشُ، لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه. قال السهيلي : ويقال إنه أول من تَتَوَّجَ. وذكر بعضهم أنه كان مسلما وكان له شعر بَشَّرَ فيه بوجود رسول الله صلى الله عليه وعلى آله. فَمِنْ ذلك قوله :

سَيَمْلِكُ بعدنا مُلْكًا عظيما ... نبيٌّ لا يُرَخِّصُ في الحرام

ويملك بعده منهم ملوك ... يدينون العباد بغير ذامِ

ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام

ويملك بعد قحطان نبيّ ... تقيّ خَبْتَةٌ خير الأنام

يُسَمَّى أحمدا يا ليت أنّي ... أُعَمَّرُ بعد مبعثه بعام

فَأَعْضُدَهُ وأَحْبُوَهُ بِنَصري ... بكل مُدَجَّجٍ وبكل رام

متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يُبْلِغْهُ سلامي

حكاه ابنُ دِحْيَةَ في كتابه [التنوير في مولد البشير النذير]

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أن رجلا، وهو فَرْوَةُ بنُ مُسَيْكٍ الغُطَيْفِيُّ، سأل النبي صلى الله عليه وعلى آله عن سبأ ماهو ؟ أَ رَجُلٌ أم امرأة أم أرض ؟ قال : بل هو رجل وَلَدَ عشَرَةً، فسكن اليمنَ منهم ستة، وبالشام منهم أربعة.

فأما اليمانيون ؛ فَمَذْحِجٌ وكِنْدَةُ والأَزْدُ والأشعريون وأَنْمارٌ وحِمْيَرُ، وأما الشاميّة ؛ فلَخْمٌ وجُذامٌ وعامِلَةُ وغسّانُ.

والمقصود أن سبأً يجمع هذه القبائل كلَّها. وقد كان فيهم التَّبابِعَةُ بأرض اليمنِ، واحدهم تُبَّعٌ. وكان لملوكهم تيجانٌ يلبسونها وقت الحُكْمِ، كما كانتِ الأكاسرةُ ملوكُ الفرسِ يفعلون ذلك. وكانت العرب تسمّي كلَّ من ملك اليمن مع الشِّحْرِ (صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، بين عدن وعمان) وحَضْرَمَوْتَ تُبَّعًا. كما يُسَمُّون من ملك الشام مع الجزيرة قيصرَ ومن ملك الفُرْسَ كِسْرى ومن ملك مصرَ فرعون ومن ملك الحَبَشَةَ النَّجاشِيَّ ومن ملك الهندَ بَطْلَيْموسَ. وقد كان مِن جملة ملوك حِمْيَرَ بأرض اليمن بلقيس، وقد كانوا في غِبْطَةٍ عظيمة وأرزاق دارَّةٍ وثمار وزروع كثيرة وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد، فلما بدلوا نعمة الله كفرا أحلوا قومهم دار البَوارِ.

والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال وسجدوا للشمس من دون الله، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضا واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى في الآيات السابقة من سورة سبإ.

وذكر غير واحد من علماء السلف والخَلَف من المفسرين وغيرهم أن سد مَأْرِبَ كان صَنْعَتَهُ أن المياه تجري من بين جبلين فعمدوا في قديم الزمان فَسَدُّوا ما بينهما ببناء مُحْكَمٍ جدا، حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبال وغرسوا فيهما البساتينَ والأشجارَ المثمرةَ الأنيقةَ وزرعوا الزروع الكثيرة. ويقال كان أول من بناه سبأُ بنُ يَعْرُبَ وسَلَّطَ إليه سبعين واديا يَفِدُ إليه وجعل له ثلاثين فُرْضَةً يخرج منها الماء، ومات ولم يَكْمُلْ بِنَاؤُهُ فكمّله حِمْيَرُ بعده، وكان اتساعه فَرْسَخًا في فرسخٍ. وكانوا في في غِبْطَةٍ عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة، حتى ذكر قَتَادَةُ وغيره أنّ المرأة كانت تَمُرُّ بالمِكْتَلِ على رأسها فيمتلئ من الثمار مما يتساقط فيه مِنْ نُضْجِهِ وكثرته. وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المُؤْذية، لصحة هواءهم وطِيبِ فِنائهم. كما قال تعالى في الآية ١٥ من سورة سبإ، وكما قال تعالى في الآية ٧ من سورة إبراهيم. فلما عبدوا غير الله وبَطَروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قُراهم وطِيبِ ما بينها من البساتين وأمن الطرقات، سألوا أن يباعد بين أسفارهم وأن يكون سفرهم في مَشاقٍّ وتعب، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شَرًّا كما سأل بنو إسرائيل بدل المنّ والسلوى البقولَ والقثّاءَ والفومَ (الثوم والحنطة والحمص

وسائر الحبوب التي تخبز) والعدسَ والبصلَ، فسُلِبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد. قال غير واحد : أرسل الله على أصل السّدّ الفأر وهو الجرذ ويقال الخُلْدُ. فلما فَطِنوا لذلك أرصدوا عندها السَّنانير فلم تُغْنِ شيئا إذ قد حُمَّ (قُضِيَ) القدر ولم ينفع الحذر. فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار وبادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والثمار، كما قال العزيز الجبار. وذلك لأنه لما كان يثمر النَّبْقُ كان قليلا مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه كما يقال في المثل : لحم جمل غَثٍّ على رأس جبل وعرٍ، لا سهل فيُرتقى ولا سمين فيُنتقى. وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخُرِّبت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا في غَوْرِ البلاد ونَجدِها شَذَرَ مَذَرَ. فنزلت طوائف منهم الحجازَ وهم خزاعةُ نزلوا ظاهر مكة، وكان من أمرهم ما سنذكره ومنهم المدينةَ المنورةَ اليومَ، فكانوا أول من سكنها. ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود ؛ بنو قَيْنُقَاعَ وبنو قُرَيْظَةَ وبنوا النَّضِيرِ، فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم. وكان من أمرهم ما سنذكره. ونزلت طائفة أخرى منهم الشامَ وهم الذين تَنَصَّروا فيما بعد وهم ؛ غسّان وعامِلةُ وبَهْراءُ ولَخْمٌ وجُذامٌ

وتَنوخُ وتَغْلِبُ وغيرهم، وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين (أبو بكر وعمر) رضي الله عنهما.

وقد ذكر محمد بنُ إسحاقَ في كتاب السيرة أن أول من خرج من اليمن قبل سَيْلِ العَرِمِ عمرو بن عامرٍ اللَّخْميّ. وكان سبب خروجه من اليمن أنه رأى جُرَذًا يحفر في سدّ مَأرَبٍ الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النُّقْلَة عن اليمن فكاد قومه، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولَطَمَه أن يقوم إليه فيلْطِمَهُ. ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو. فاشتروا منه أمواله وانتقل في ولده وولد ولده، وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا عَكًّ مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عكٌّ فكانت حربهم سِجَالاً. ثم تفرقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزل الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مَرًّا ونزلت أزد السراةِ السراةَ ونزلت أزد عمانَ عمانَ. ثم أرسل الله تعالى على السد السَّيْل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات.

وقال غيره : كانت امرأته طريفةُ بنتُ الخيرِ الحِمْيَرِيَّةُ كاهنةً، فأُخبِرَت بقرب هلاك بلادهم وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سُلِّطَ على سدهم، ففعلوا ما فعلوا، والله أعلم.

فصل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم، بل أقام أكثرهم بها، وذهب أهل مأربٍ الذين كان لهم السّدّ فتفرقوا في البلاد. وعن ابن عباس أن من قبائل سبإٍ أربعةً تشاءموا وبقي باليمن ستة وهم ؛ مَذْحِجٌ وكِنْدَةُ وأنمارٌ والأشعريون. وأنمار هو أبو خَثْعَمٍ وبَجيلَةَ وحِمْيَر، فهؤلاء ست قبائل من سبإٍ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبابعة حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صُحْبَةَ أميرَيْهِ أبْرَهَةَ وأرياطٍ ثم استرجعه سيف بنُ ذي يَزَنَ الحميريّ، وكان ذلك قبل مولد رسول اللّه صلى اللّه عليه

وعلى آلـــــــــــــــــــــــــــــــه.

قصة ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عَمْرو بن عامر

قال محمد بنُ إسحاق : كان ربيعة بنُ نصرٍ مَلَكَ اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة، فرأى رؤيا هالته وفَظِع منها فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عائِفا (المتكهن بالطير أو غيرها) ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم : إني رأيت رؤيا هالتني وفَظِعتُ منها فأخبروني بها وبتأويلها. فقالوا : اُقصصها علينا نُخْبِرْك بتأويلها. فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها لأنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شِقٍّ وسَطيحٍ فإنه ليس أحد أعلم منهما، فهما يخبرانك بما سألت عنه. فبعث إليهما، فقَدِمَ إلى سَطيحٍ قبل شِقٍّ فقال له : إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها

فأخبرني بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. فقال : أفعل. رأيتَ حُمَمَةً (الفحمة وأراد فيها نارا) خرجت من ظُلْمَةٍ فوقعت بأرض تَهَمَةٍ (مُتَصَوِّبَةٍ نحو البحر) فأكلت منها كلَّ ذاتِ جُمْجُمَةٍ. فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئا يا سطيحُ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحَرَّتَيْنِ من حَنَشٍ لتَهْبِطَنَّ أرضكم الحبشة فليملكنّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَشَ. فقال له الملك : وأبيك يا سَطيحُ إن هذا لنا لغائظ موجِعٌ فمتى هو كائن ؟ أفي زماني أم بعده ؟ فقال : لا بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال : أَ فَيَدومُ ذلك من سلطانهم أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم يُقْتَلونَ ويخرجون منها هاربين. قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إِرَمُ ذي يَزَنَ يخرج عليهم من عدنٍ فلا يترك منهم أحدا باليمن. قال : أ فَيَدومُ ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع. قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العليّ. قال وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالبِ بنِ فِهْرٍ بنِ مالكٍ بنِ النَّضْرِ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدّهر. قال : وهل للدّهر من آخر ؟ قال : نعم، يومٌ يُجْمَعُ فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيؤون. قال : أ حَقٌّ ما

تخبرني ؟ قال : نعم، والشفق والغسق والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لَحَقٌّ.

ثم قَدِمَ عليه شِقّ، فقال له كقوله لسَطيحٍ وكَتَمه ما قال سطيح لينظر أيَتَّفِقان أم يختلفان. قال : نعم رأيتَ حُمَمَةً خرجت من ظُلمة فوقعت بين روضة وأَكَمَةٍ فأكلتْ منها كل ذات نَسَمَةٍ. فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد، إلا أن سطيحا قال : وقعت بأرضٍ تَهَمَةٍ فأكلتْ منها كلَّ ذات جُمْجُمَةٍ. وقال شقّ : وقعت بين روضة وأكَمَةٍ فأكلتْ منها كلَّ ذاتِ نَسَمَةٍ. فقال له الملك : ما أخطأتَ يا شِقُّ منها شيئا فما عندك في تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحَرَّتَينِ من إنسان لَيَنْزِلَنّ أرضَكم السودان فَلَيَغْلِبُنَّ على كلِّ طَفْلَةِ (النّاعمة اللّيّنة) البَنَانِ ولَيَمْلِكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى نَجْرانَ. فقال له الملك : وأبيك يا شِقُّ إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ أفي زماني أم بعده ؟ قال : لا، بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شانٍ ويذيقهم أشد الهوانِ. قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بِدَنِيٍّ ولا مُدَنٍّ (المُقَصِّر في الأمور)، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَنَ. قال :

أَفَيَدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل من أهل الدين والفضل، يكون المُلْكُ في قومه إلى يوم الفصل. قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم تُجْزَى فيه الوُلاةُ، يُدْعى فيه من السماء بدعوات يَسْمَع منها الأحياء والأموات ويُجْمَعُ الناس فيه للميقات يكون فيه لِمَنْ اتقى الفوزُ والخيراتُ. قال : أَحَقٌّ ما تقول ؟ قال إي، ورب السماء والأرض وما بينهما مِنْ خَفْضٍ ورَفْعٍ، إنّ ما أنبأتك به لحق ما فيه أَمْضٌ. قال ابن إسحاق : فَوَقَعَ في نفس ربيعة بنِ نصرٍ ما قالا، فجهّز بنيه وأهلَ بيتِه إلى العراق وكتب لهم إلى مَلِكٍ من ملوك فارس يقال له سابورُ بنُ خُرَّزاذَ. فأسكنهم الحِيرَةَ. قال ابن إسحاق : فمِن بقيّة وَلَدِ ربيعةَ بنِ نصرٍ النّعمانُ بنُ المنذر بنِ النّعمان بنِ المنذر بنِ عمرٍو بنِ عَدِيٍّ بنِ ربيعةَ بنِ نصرٍ، يعني الذي كان نائبا على الحيرة لملوك الأكاسرة. وكانت العرب تَفِدُ إليه وتمتدحه. وهذا الذي قاله محمد بنُ إسحاقَ مِنْ أنّ النعمان بنَ المنذر مِن سُلالَةِ ربيعةَ بن نصرٍ، قاله أكثر الناس. وقد روى ابنُ إسحاقَ أنّ أمير المؤمنين عمرَ بنَ الخطّابِ لمّا جيء بسيف النّعمان بنِ المنذرِ سأل جُبَيْرَ بنَ مُطْعِمٍ عنه : مِمَّن كان ؟ فقال : مِن أشلاءِ قُنُصِ بنِ مَعَدِّ بنِ عدنان. قال ابنُ إسحاقَ : فاللهُ أعلمُ أيُّ ذلك كان.

قصة تُبَّعٍ أبي كَرِبٍ ؛ تُبَّانِ أسعَدَ ملك اليمن

قال ابنُ إسحاقَ : فلمّا هَلَكَ ربيعةُ بنُ نصرٍ رَجَعَ ملك اليمن كلُّه إلى حسّانَ بنِ تُبَّانِ أَسْعَدَ أبي كَرِبٍ، وتُبّانُ أسعَدَ تُبَّعٌ الآخِرُ، ابنُ كُلْكِيكَرِبَ بنِ زيدٍ. وتُبّانُ أسعَدَ أبو كَرِبٍ هو الذي قَدِمَ المدينة وساق الحَبْرَيْنِ من اليهود إلى اليمن وعَمَّرَ البيتَ الحرامَ وكساهُ وكان ملكه قبل ملك ربيعةَ بنِ نصرٍ. وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة وكان قد مرَّ بها في بَدْأَتِه فلم يَهِجْ أهلها وخلّف بين أَظْهُرِهِم ابنا له فقُتِلَ غِيلَةً. فقَدِمَها وهو مُجْمِعٌ لإخرابها واستئصال أهلها وقَطْعِ نخلها. فجُمِعَ له هذا الحيُّ من الأنصار ورئيسهم عمرو بنُ طَلَّةَ أخو بني النّجّارِ ثم أحدُ بني عمرو بنِ مبذول. واسمُ مبذولٍ، عامرُ بنُ مالك بنِ النّجّار.

واسمُ النّجّار، تَيْمُ الله بنُ ثعلبةَ بنِ عمرو بنِ الخزرج بنِ حارثةَ بنِ ثعلبةَ بنِ عمرو بنِ عامر.

قال ابن هشام : عمرو بنُ طَلَّةَ هو عمرو بنُ معاويةَ بنِ عمرو بنِ عامر بنِ مالك بنِ النّجّار، وطَلَّةُ أمُّه وهي بنتُ عامر بنِ زُرَيْقٍ الخزرجيّة.

قال ابنُ إسحاقَ : وقد كان رجلٌ من بني عَدِيّ بنِ النّجّار يقال له أحمرُ، عدا على رجل من أصحاب تُبَّعٍ، وجده يَجُدُّ عَذْقا له فضربه بمِنْجِلِه فقتله، وقال إنما التمر لِمَن أبرَّه. فزاد ذلك تُبّعًا حَنَقا عليهم، فاقتتلوا. فتزعُمُ الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويَقْرونَه بالليل، فيُعْجبه ذلك منهم ويقول : واللهِ إنّ قومنا لَكِرامٌ. وحكى ابنُ إسحاقَ عن الأنصار أنّ تُبَّعًا إنما كان حَنَقُه على اليهود أنّهم منعوهم منه.

قال السُّهَيْلِيّ : ويقال إنّه إنما جاء لنصرة الأنصار - أبناء عمه - على اليهود، الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط فلم يَفُوا بها واستطالوا عليهم. والله أعلم.

قال ابنُ إسحاق : فبينا تُبَّعٌ على ذلك من قتالهم، إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قُرَيْظَة، عالمان راسخان، حين

سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له : أيها الملك، لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حِيلَ بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فقال لهما : ولِمَ ذلك؟ قالا : هي مُهاجَرُ نبيّ، يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره. فتناهى ورأى أن لهما علما وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما. قال ابنُ إسحاقَ : وكان تُبَّعٌ وقومُه أصحابَ أوثانٍ يعبدونها. فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن حتى إذا كان بين عُسْفانَ وأَمَجٍ، أتاه نَفَرٌ من هُذَيْلِ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نزار بنِ مَعَدِّ بنِ عدنانَ، فقالوا له : أيها الملك، ألا ندلّك على بيت مال داثرٍ أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزَّبَرْجَدُ والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى. قالوا : بيتٌ بمكّة يعبده أهلُه ويصلون عنده. وإنما أراد الهُذَلِيّون هلاكه بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده. فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحَبْرَيْنِ فسألهما عن ذلك، فقالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم بيتا لله، عز وجلّ، اتّخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعَوْك إليه لَتَهْلِكَنَّ ولَيَهْلِكَنَّ من معك جميعا. قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا قدمت عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله،

تطوف به وتعظّمه وتكرّمه وتَحْلِقُ رأسك عنده وتَذِلُّ له حتى تخرج من عنده. قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك، ولكنّ أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي يهرقون عنده وهم نجس أهل شرك. أو كما قالا له. فعرف نصحهما وصدّق حديثهما وقَرَّبَ النَّفَرَ من هُذَيْلٍ فقطّع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قَدِمَ مكة. فطاف بالبيت ونحر عنده وحَلَقَ رأسه وأقام بمكة ستّةَ أيام، فيما يذكرون، ينحر للناس ويُطْعِمُ أهلها ويسقيهم العسل. وأُرِيَ في المنام أن يَكسُوَ البيت فكساه الخَصَفَ (جمع الخصفة وهو الثوب الغليظ)، ثم أُرِيَ في المنام أن يَكْسُوَهُ أحسن من ذلك فكساه المَعافِرَ (ثياب تنسب إلى قبيلة مم اليمن)، ثم أُرِيَ أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المُلاءَ والوصائِلَ (ثياب مخططة يمنية يوصل بعضها إلى بعض). فكان تُبَّعٌ فيما يزعمون أوّل من كسا البيتَ، وأوصى به وُلاتَهُ من جُرْهُمٍ وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دما ولا مَيْتَةً ولا مِئْلاةً، وهي المحائض، وجعل له بابا ومفتاحا.

قال ابنُ إسحاقَ : ثم خرج تُبَّعٌ متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحَبْرَيْنِ. حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه وقال إنه خير من دينكم، فَأَبَوْا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن. وكانت حِمْيَرُ حالت بينه وبين الدخول إلى اليمن وقالوا : لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا، فحاكمنا إلى النار ؟ قال : نعم. وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تَحْكُمُ بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم. فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحَبْرانِ بمصاحفهما في أعناقهم مُتَقَلِّدَيْها، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار إليهم. فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فَذَمَرَهُم (خصهم وشجعهم) مَن حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها. فصبروا حتى غَشِيَتْهُمْ فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حِمْيَرَ. وخرج الحَبْرَانِ بمصاحفهما في أعناقهما تَعْرَقُ جِبَاهُهُما ولم تَضُرَّهما، فأصفقت عند ذلك حِمْيَرُ على دينه. فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن.

قال ابنُ إسحاقَ : وقد حدّثني مُحَدِّثٌ أنّ الحَبْرَيْنِ ومن خرج من حِمْيَرَ إنما اتبعوا النار ليردّوها، وقالوا : من ردّها فهو أولى بالحقّ. فدنا منها رجالُ حِمْيَرَ بأوثانهم ليردّوها فدنت منهم لتأكلهم، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردّها. ودنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة، وتنكص عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه، فأصفقت عند ذلك حِمْيَرُ على دينهما. والله أعلم أي ذلك كان.

قال ابنُ إسحاقَ : وكان رِئَامٌ بيتا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويُكَلَّمُونَ منه إذ كانوا على شركهم. فقال الحبران لتُبَّعٍ : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك، فَخَلِّ بيننا وبينه. قال : فشَأْنَكما به. فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلبا أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت. فبقاياه اليومَ كما ذُكِرَ لي بها آثار الدماء التي كانت تُهْرَاقُ عليه.

قال السُّهيليّ عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله قال : لا تَسُبُّوا أسعد الحِمْيَرِيّ فإنه أول من كسا الكعبة.

قال السُّهيليّ : وقد قال تُبَّعٌ حين أخبره الحبران عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله شِعْرًا :

شَـــهِدْتُ على أحمــدٍ أنـــه نـــبيّ من اللـــه بـــاري النَّسَـمِ
فلـــو مُـــدَّ عمـــري إلى عمـــره لكنت وزيـــرا لـــه وابنَ عمِّ
وجاهدتُ بالسيف أعداءه وفَرَّجتُ عن صدره كلَّ همِّ

قـال : ولم يـزل هـذا الشـعر تتوارثـه الأنصـار ويحفظونـه بينهم. وكـان عنـد أبي أيـوب الأنصـاري، رضي اللـه عنـه وأرضـاه. قـال السُّـهيلي : وذكـر ابنُ أبي الـدنيا في كتـاب [القبور]، أن قبرا حُفِرَ بصنعاء فوُجِدَ فيـه امرأتـان معهمـا لَوْحٌ من فضّة مكتوب بالـذهب وفيـه : هـذا قـبر لَمِيسٍ وحُبَّى، ابنـتيْ تُبَّعٍ، ماتا وهما تشهدان أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شريك لـه، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسّانَ بنِ تُبّانٍ أسـعدَ، وهـو أخو اليمامةِ الزرقاء التي صُلِبت على باب مدينـة جَوٍّ، فسُمِّيت من يومئذٍ اليمامةَ. قال ابنُ إسحاقَ : فلما ملكَ ابنُه حسّـانُ بنُ أبي كَرِبٍ تُبّانِ أسعدَ، سار بأهل اليمن يريد أن يَطَـأَ بهم أرض العـرب وأرض الأعـاجم، حـتى إذا كـانوا ببعض أرض العـراق كـرهت حِمْيَرُ وقبائـلُ اليمن السَّـيْرَ معـه، وأرادوا الرَّجعَـةَ إلى بلادهم وأهليهم. فكلَّموا أخا له يقال لـه عمرٌو، وكـان معـه في جيشه، فقالوا له : اُقتـل أخـاك حسّـانَ ونُمَلِّكُـكَ علينـا وترجـع

بنا إلى بلادنا. فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذا رُعَيْنٍ الحِمْيَرِيّ فإنه نها عَمْرًا عن ذلك، فلم يقبل منه. فكتب ذو رعين رُقْعَةً فيها هذان البيتان :

ألا من يشتري سَهَرًا بنوم   سعيد مَن يبيتُ قرير عينِ
فأما حِمْيَرٌ غدرت وخانت   فمعذرةُ الإلهِ لذي رُعَيْنِ

ثم استودعها عمرا. فلما قتل عمرو أخاه حسّانَ ورجع إلى اليمن، مُنِعَ منه النومُ وسُلِّطَ عليه السّهر، فسأل الأطباء والحُزاةَ (واحدهم حاز وهو الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن) من الكُهَّانِ والعرّافينَ عَمَّا به فقيل له : إنه والله ما قتل رجلٌ أخاه قطُّ أو ذا رَحِمِه بغيا إلا ذهب عنه نومه وسُلِّطَ عليه السّهر. فعند ذلك جعل يقتل كلَّ من أمره بقتل أخيه، فلمّا خَلَصَ إلى ذي رُعَيْنٍ قال له : إنّ لي عندك براءةً. قال : وما هي ؟ قال : الكتاب الذي دفعتُه إليك. فأخرجه فإذا فيه البيتان، فتركه ورأى أنه قد نصحه. وهلك عمرٌو، فمَرَجَ أمرُ حِمْيَرَ عند ذلك وتفرّقوا.

وُثُوبُ لَخْنِيعَةَ ذي شَناتِرَ على مُلْك اليمن

وقد ملكها سبعا وعشرين سنة. قال ابنُ إسحاقَ : فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملِكِ يقال له : لَخْنيعَةُ يَنوفُ ذو شَناتِرَ. فقتل خيارهم وعبث ببيوت المملكة منهم وكان مع ذلك امرءًا فاسقا يعملُ عملَ قومِ لوطٍ. فكان يرسلُ إلى الغلامِ من أبناءِ الملوك فيقع عليه في مَشْرَبَةٍ له، قد صنعها لذلك لِئَلَّا يملك بعد ذلك. ثمّ يَطَّلِعُ من مشربته تلك إلى حرسه ومن حضر من جنده، قد أخذ مسواكا فجعله في فيه، أي لِيُعْلِمَهم أنّه قد فرغ منه. حتى بعث إلى زُرْعَةَ ذي نُواسٍ بنِ تُبَّانِ أسعدَ، أخي حسّانَ، وكان صبيا صغيرا حين قُتِلَ أخوه حسّانُ. ثم شَبَّ غلاما جميلا وسيما ذا هيأةٍ وعقلٍ،

فلما أتاه رسولُه عرف ما يريد منه، فأخذ سِكِّينًا حديدا لطيفا فخبّأَهُ بين قدميه ونَعْلِه ثم أتاه. فلما خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نُواسٍ فَوَجَأَهُ حتى قتله ثم حَزَّ رأسه، فوضعه في الكُوَّةِ التي كان يُشْرِفُ منها، ووضع مسواكه في فيه، ثم خرج على الناس فقالوا له : ذا نُواسٍ، أَرَطْبٌ أم يباسٌ ؟ فقال : سَلْ نَخْماسَ (الرأس) اسْتُرْطُبان ذو نُواسٍ استرطبان لا باس. فنظروا إلى الكُوَّة فإذا رأس لَخْنيعَةَ مقطوع. فخرجوا في أثر ذي نُواسٍ حتى أدركوه، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك، إذ أرحتنا من هذا الخبيث. فمَلَّكوه عليهم واجتمعت عليه حِمْيَرُ وقبائل اليمن، فكان آخرَ ملوك حِمْيَرَ وتَسَمَّى يوسُفَ، فأقام في ملكه زمانا.

وبِنَجْرانَ بقايا من أهل دين عيسى ابن مريمَ عليهما السلام، على الإنجيل، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأسٌ يقال له : عبد الله بنُ الثّامِرِ. ثمّ ذكر ابنُ إسحاقَ سبب دخول أهل نجران في دين النّصارى، وأنّ ذلك كان على يد رجل يقال له : فَيْمَيُونُ. كان من عُبَّادِ النّصارى بأطراف الشّام، وكان مُجابَ الدّعوة، وصَحِبَه رجل يقال له : صالحٌ. فكانا يتعبدان يوم الأحد، ويعمل فَيْمَيُونُ بقيّة الجمعة في

البناء وكان يدعو للمرضى والزَّمْنَى وأهلِ العاهاتِ فيُشْفَوْنَ. ثمّ استأسره وصاحَبَه بعض الأعرابِ فباعوهم بِنَجْرانَ، فكان الذي اشترى فَيْمَيونَ يراه إذا قام في مُصَلَّاه بالبيت الذي هو فيه - في الليل - يمتلئ عليه البيت نورا، فأعجبه ذلك من أمره. وكان أهل نَجْرانَ يعبدون نخلةً طويلةً يعلِّقون عليها حُلِيَّ نسائهم ويعكفون عندها. فقال فَيْمَيُونُ لسيّده : أرأيتَ إن دعوتُ اللهَ على هذه الشّجرة فهلكت، أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل ؟ قال : نعم. فجمع له أهل نجران، وقام فَيْمَيُونُ إلى مصلّاه فدعا الله عليها، فأرسل الله عليها قاصفا فجَعَفَهَا من أصلها ورماها إلى الأرض. فاتبعه أهلُ نجرانَ على دين النّصرانيّة وحَمَلَهم على شريعة الإنجيل، حتى حَدَثَتْ فيهم الأحداث التي دخلتْ على أخل دينهم بكلِّ أرضٍ. فمن هنالك كانت النّصرانيّة بِنَجْرانَ، من أرض العرب.

ثم ذكر ابنُ إسحاقَ قصّة عبدِ اللهِ بنِ الثّامرِ حين تنصّر على يديْ فَيْمَيونَ وكيف قتَلَهُ وأصْحابَهُ ذو نُواسٍ وَخَدَّ لهم الأُخْدودَ - وقال ابنُ هشامٍ : وهو الحَفْرُ المستطيل في الأرض مثلُ الخندقِ - وأجّجَ فيه النّار وحرّقهم بها، وقتل آخرين حتى قتل قريبا من عشرين ألفا.

ذكرُ خروج المُلْكِ باليمن من حِمْيَرَ وصيرورته إلى الحَبَشَةِ السُّودانِ

كما أخبر بذلك شِقٌّ وسَطيحٌ الكاهنان ؛ وذلك أنه لم يَنْجُ من أهل نجران إلا رجل واحد يقال له : دَوْسٌ ذو ثُعْلُبانَ، على رأس فرس له، فسلك الرّملَ فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصرَ مَلِكِ الرُّومِ فاستنصره على ذي نُواسٍ وجنودِهِ، وأخبره بما بلغ منهم، وذلك لأنه نصرانيّ على دينهم. فقال له : بَعُدَتْ بلادُك منّا، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك. فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره. فقَدِمَ دَوْسٌ على النّجاشيّ بكتاب قيصرَ، فبعث معه سبعين ألف من الحبشة وأَمَّرَ عليهم رجلا منهم يقال له : أرْياطُ. ومعه في جنده أَبْرَهَةُ الأشْرَمُ. فركب

أرياطُ البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دَوْسٌ، وسار إليه ذو نُواسٍ في حِمْيَرَ ومن أطاعه من قبائل اليمن. فلما التقوا انهزم ذو نُواسٍ وأصحابُه. فلمّا رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه، وَجَّه فرسه في البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضَحْضاحَ البحر حتى أفضى به إلى غَمْرَةٍ فأدخله فيها. فكان آخر العهد به. ودخل أرياطُ اليمنَ فملكها.

ذِكْرُ خروج أبْرَهَةَ الأشْرَمِ على أرياطَ واختلافهما

قال ابنُ إسحاقَ : فأقام أرياطُ بأرض اليمن سنينَ في سلطانه ذلك ثمّ نازعه أبرهةُ، حتى تفرقت الحبشةُ عليهما فانحاز إلى كلٍّ منهما طائفة ثمّ سار أحدهما إلى الآخرِ. فلمّا تقاربت الناس أرسل أبرهةُ إلى أرياطَ : إنّك لا تصنع بأن تُلْقِيَ الحبشةَ بعضها ببعض حتى تُفْنِيَهَا شيئا، فابْرُزْ لي

وأبرز لك، فأيُّنا أصاب صاحبه انصرف إلى جنده. فأرسل إليه أرياطُ : أنصفتَ. فخرج إليه أبرهةُ وكان رجلا قصيرا لحيما وكان ذا دين في النّصرانيّة، وخرج إليه أرياطُ، وكان رجلا جميلا عظيما طويلا وفي يده حربةٌ له، وخلف أبرهةَ غلامٌ يقال له : عَتَوْدَةُ، يمنع ظهره. فرفع أرياطُ الحَرْبَةَ فضرب أبرهةَ يريد يافُوخَهُ فوقعت الحربةُ على جبهةِ أبرهةَ فشَرَمَتْ حاجبه وعينه وأنفه وشفته ؛ فبذلك سُمِّيَ أبرهةَ الأَشْرَمَ. وحَمَلَ عَتَوْدَةُ على أرياطَ من خلف أبرهةَ فقتله. وانصرف جند أرياطَ إلى أبرهةَ، فاجتمعت عليه الحبشةُ باليمن وَوَدى أبرهةُ أرياطَ. فلمّا بلغ ذلك النجاشيَّ - مَلِكَ الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن - غضب غضبا شديدا على أبرهةَ، وقال : عدا على أميري فقتله بغير أمري. ثمّ حلف لا يدعُ أبرهةَ حتى يطأ بلاده ويَجُزَّ ناصيته. فحلق أبرهةُ رأسه وملأ جِرابا من تراب اليمن ثمّ بعث به إلى النّجاشيّ، ثم كتب إليه : أيها الملك، إنما كان أرياطُ عبدَكَ وأنا عبدُك، فاختلفنا في أمرك وكلٌّ طاعته لك، إلا أنّي كنت أقوى على أمر الحبشةِ وأضبط لها وأَسْوَسَ منه، وقد حلقتُ رأسي كلَّه حين بلغني قسم الملك وبعثتُ إليه بجِرابٍ ترابٍ من أرضي ليَضَعَه تحت قدميه فَيَبَرَّ قَسَمَه فِيَّ. فلمّا انتهى ذلك إلى النّجاشيّ رضي عنه

وكتب إليه ؛ أن اثبُتْ بأرض اليمن حتى يأتيك أمري. فأقام أبرهةُ باليمن.

ذكر سبب قَصْدِ أبرهةَ بالفيل مكَّةَ لِيُخْرِبَ الكعبةَ

أوّل من ذلّل الفِيَلَةَ أفْريدونُ بنُ أثفيانَ الذي قتل الضحاكَ. قاله الطبري. وهو أول من اتّخذ للخيل السُّروجَ. وأما من سخّر الخيلَ وركبها فطهمورثُ، وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا. ويقال : إن أول من ركبها إسماعيل بنُ إبراهيمَ عليهما السلام. ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب. والله تعالى أعلم. ويقال : إن الفيل مع عِظَمِ خِلْقَتِهِ يَفْرَقُ من الهِرِّ. وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود بإحضار سنانيرَ إلى حَوْمَةِ الوغى فنفَرَتِ الفِيَلَةُ.

قال ابنُ إسحاقَ : ثمّ إنّ أبرهةَ بنى القُلَّيْسَ بصنعاءَ، فبنى كنيسةً لم يُرَ مثلُها - في زمانها - بشيء من الأرض. ثمّ كتب

إلى النّجاشيّ : إني قد بنيتُ لك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لِمَلِكٍ كان قبلك، ولست بِمُنْتَهٍ حتّى أصْرِفَ إليها حجّ العرب.

فذكر السُّهيليّ أنّ أبرهةَ استذلّ أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة وسخّرهم فيها بأنواع من السُّخَرِ، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلعَ الشمسُ يقطع يده لا محالة. وجعل ينقُلُ إليها من قصر بلقيسَ رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة، وركّب فيها صُلْبانا من ذهب وفضّة وجعل فيها منابر من عاجٍ وآبِنوسَ. وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهرا. فلمّا هلك أبرهةُ وتفرقت الحبشة كان من تعرّض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجنّ بسوءٍ ؛ وذلك لأنها مبنيّة على اسم صنمين ؛ كُعَيْبٍ وامرأتِه، وكان طول كلٍّ منهما ستين ذراعا. فتركها أهل اليمن على حالها. فلم تزل كذلك حتى زمن السّفّاح ؛ أول خلفاء بني العباس، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجرا حجرا ودَرَسَت آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابنُ إسحاقَ : فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهةَ إلى النّجاشيّ، غضب رجل من النَّسَأَةِ من كِنانَةَ، الذين يَنْسَؤونَ الشهرَ الحرامَ إلى الحلّ بمكّةَ أيام الموسم. فخرج الكِنانِيُّ حتى

أتى القُلَّيْسَ فقعد فيه ؛ أي أحدث حيث لا يراه أحد، ثمّ خرج فَلَحِقَ بأرضه. فأُخْبِرَ أبرهَةُ بذلك، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجل مم أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك بأنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا، فغضب فجاء فقعد فيه، أي أنه ليس لذلك بأهل. فغضب أبرهةُ عند ذلك وحلف لَيَسِيرَنَّ إلى البيت حتى يهدمه. ثمّ أمر الحبشة فتهيّأت وتجهّزت، ثمّ سار وخرج معه بالفيل. وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفَظِعُوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نَفْرٍ. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهةَ وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك. ثم عَرَضَ له فقاتله، فهُزِمَ ذو نَفْرٍ وأصحابُه، وأُخِذَ له ذو نفر فأُتِي به أسيرا. فلما أراد قتله قال له ذو نَفْرٍ : يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من القتل. فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهةُ رجلا حليما. ثمّ مضى أبرهةُ على وجهه لذلك يريد ما خرج له. حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمٍ عرض له نُفَيلُ بنُ حبيب الخَثْعَمِيُّ في قبيلتَيْ خثعمٍ وهما :

شَهْرانُ وناهِسٌ ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهةُ وأُخِذَ له نُفَيْلٌ أسيرا، فأُتِيَ به، فلما همّ بقتله قال له نُفَيْلٌ : أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب وهاتان يداي لك على قبيلتَيْ خَثْعَمٍ - شَهْرَانَ وناهِسٍ - بالسمع والطاعة. فخلّى سبيله، وخرج به معه يدلُّه. حتى إذا مَرَّ بالطائف خرج إليه مسعود بنُ مُعَتِّبِ ابنِ مالكِ بنِ كعبِ بنِ عمرِو بنِ سعدِ بنِ عوفِ بنِ ثقيفٍ في رجال ثقيفٍ، فقالوا له : أيها الملك، إنما نحن عبيدُك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلافٌ وليس بيتَنا هذا البيتُ الذي تريد - يعنون اللاتَ - إنما تريد البيت الذي بمكّةَ ونحن نبعث معك من يدلُّك عليه. فتجاوز عنهم.

قال ابنُ إسحاقَ : واللاتُ بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة. قال : فبعثوا معه أبا رِغالٍ يدلّه على الطريق إلى مكّةَ، فخرج أبرهةُ ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمُغَمِّسِ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمّس. ثم بعث أبرهةُ رجلا من الحبشة يقال له : الأسود بنُ مقصودٍ، على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموالَ أهلِ تِهامةَ من قريش

وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشمٍ وهو يومئذ كبير قريشٍ وسيِّدها. فهمّت قريشٌ وكِنانةُ وهُذيلٌ ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثمّ عرفوا أنه لا طاقة لهم به. فتركوا ذلك، وبعث أبرهةُ حُناطَةَ الحِمْيَرِيَّ إلى مكّةَ وقال له : سَلْ عن سيّد أهل هذا البلد وشريفهم ثم قل له : إن الملك يقول : إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تَعَرَّضوا لنا دونَه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حُناطَةُ مكّةَ سأل عن سيد قريشٍ وشريفها، فقيل له : عبد المطلب بنُ هاشمٍ. فجاءه فقال له ما أمره به أبرهةُ، فقال له عبد المطلب : واللهِ ما نريد حربَه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو حرمُه وبيتُه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حُناطَةُ : فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتِيَه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بَنِيهِ حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْرٍ وكان له صديقا حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له : يا ذا نَفْرٍ، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفْرٍ : وما غناءُ رجلٍ أسيرٍ بيدي مَلِكٍ ينتظر أن يقتله غُدُوًّا أو عَشِيًّا ؟ ما عندي غناءٌ في شيء مما نزل بك، إلا

أنّ أُنَيْسًا سائسَ الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك وأُعْظِمُ عليه حقّك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمَه بما بدا لك ويشفعَ لك عنده بخير إن قَدَرَ على ذلك. فقال : حَسْبِي. فبعث ذو نَفْرٍ إلى أُنَيْسٍ فقال له : إنّ عبدَ المطّلبِ سيّد قريشٍ وصاحبُ عِيرِ مكّةَ يُطْعِمُ النّاسَ بالسَّهْلِ والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملكُ مائتيْ بعيرٍ فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعتَ. قال : أفعلُ. فكلّمَ أُنَيْسٌ أبرهةَ فقال له : أيها الملك، هذا سيّد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحبُ عيرِ مكّةَ، وهو الذي يُطْعِمُ النّاسَ بالسّهل والوحوشَ في رؤوس الجبال، فَأْذَنْ له عليك فَلْيُكَلِّمْكَ في حاجتِه. فَأَذِنَ له أبرهةُ. قال : وكان عبد المطّلب أَوْسَمَ النّاس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهةُ أجلّه وأكرمه عن أن يُجْلِسَهُ تحته، وكره أن تراه الحبشة يُجْلِسُه معه على سرير مُلْكِهِ. فنزل أبرهةُ عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثمّ قال لتُرْجُمانِهِ : قل له : حاجَتَك. فقال له ذلك التّرجمان، فقال : حاجتي أن يردّ عليّ الملِكُ مائتيْ بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهةُ لتُرْجُمانِه : قل له : لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُكَ، ثمّ قد زَهِدْتُ فيك حين كلّمتني، أتُكَلِّمني في مائتيْ بعير أصبتُها لك وتترُكُ بيتا هو دينُك

ودين آبائك، قد جئتُ لأهدمه، لا تكلّمني فيه ؟ فقال له عبدُ المطّلبِ : إنّي أنا ربّ الإبل وإنّ للبيت ربّا سيمنعه. فقال : ما كان لِيَمْتَنِعَ منّي. قال : أنتَ وذاك. فردّ على عبد المطّلب إبِلَـهُ. قال ابنُ إسحاقَ : ويقال : إنّه كان قد دخل مع عبد المطّلب على أبرهةَ يَعْمَرُ بنُ نُفاثَةَ ابنِ عَدِيّ بنِ الدُّئِلِ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مناةَ بنِ كِنانَةَ، سيّد بني بكرٍ، وخُوَيْلِدُ بنُ واثِلَـةَ، سيّد هُذَيْلٍ، فعرضوا على أبرهةَ ثلث أموال تِهامَةَ على أن يرجعَ عنهم ولا يهدمَ البيتَ، فأبى عليهم ذلك. فالله أعلم أكان ذلك أم لا. فلمّا انصرفوا عنه انصرف عبدُ المطّلب إلى قريشٍ فأخبرهم الخبرَ وأمرهم بالخروج من مكّةَ والتَّحَرُّزِ في رؤوس الجبال. ثمّ قام عبدُ المطّلب فأخذ بِحَلْقَةِ باب الكعبةِ وقام معه نَفَرٌ من قريشٍ يدعون اللهَ ويستنصرونه على أبرهةَ وجنده. وقال عبد المطّلب وهو آخذ بِحَلْقَةِ باب الكعبة :

لاهُمَّ إنّ العبدَ يمنع رَحْلَهُ فامنع حِلالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهم ومِحالُهم غدْوًا مِحالَكْ

إن كنت تارِكَهم وقِبْلَتَنا فَأْمُرْ ما بدا لَكْ

قال ابنُ هشام : هذا ما صحّ له منها. قال ابنُ إسحاقَ : ثمّ أرسلَ عبدُ المُطَّلب حَلْقَةَ باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه

من قريش إلى شَعَفِ الجبال يتحرّزون فيها، ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ. فلمّا أصبح أبرهةُ، تهيّأ لدخول مكّةَ وهيّأ فيله وعبّى جيشَه، وكان اسم الفيل محمودا. فلمّا وجّهوا الفيل إلى مكّةَ أقبل نُفَيْلُ بنُ حبيبٍ حتى قام إلى جَنْبِ الفيل، ثمّ أخذ بأُذُنِه فقال : ابْرُكْ محمودُ، وارجع راشدا من حيث أتيتَ، فإنّك في بيت الله الحرام. وأرسل أُذُنَهُ، فبَرَكَ الفيلُ.

قال السُّهيليّ : أي سقط إلى الأرض، وليس من شأن الفِيَلَةِ أن تبرُكَ. وقد قيل : إنّ منها ما يبرُكُ كالبعير. فالله أعلم.

وخرج نُفَيْلُ بنُ حبيبٍ يشتدّ حتّى أصْعَدَ في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوه في رأسه بالطَّبَرْزِينِ (فارسيّ، وتفسيره فاس السّرج) ليقوم فأبى. فأدخلوا مَحاجِنَ (جمع مِحْجَن وهو العصا المُعْوَجَّة) لهم في مَراقِّه (ما سَفَلَ من البطن عند الصِّفاق أسفل من السُّرَّة) فبَزَغُوه (بزغ دمه : أساله) بها ليقوم فأبى. فوجّهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكّةَ فبرك. وأرسل اللهُ عليهم طيرا من البحر أمثالَ الخطاطيفِ والبَلَسانِ، مع كلِّ طائر منها ثلاثة

أحجار يحملها، حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلّا هلك. وليس كلُّهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطّريق التي منها جاؤوا، ويسألون عن نُفَيْلِ بنِ حبيبٍ ليدلّهم على الطّريق إلى اليمن، فقال نُفَيْلٌ في ذلك :

ألا حُيِّيتِ عنّا يا رُدَيْنا   نَعِمْناكم من الإصباح عَيْنا

رُدَيْنَةُ لو رأيتِ ولا تَرَيْه   لدى جَنْبِ المُحَصَّبِ ما رأينا

إذن لَعَذَرْتِنِي وحَمِدْتِ أمري ولم تأسَيْ على ما فات بينا

حَمِدْتُ اللهَ إذ أبصرتُ طيرا وخِفْتُ حجارةً تُلْقى علينا

وكلُّ القوم يسألُ عن نُفَيْلٍ كأنّ عَلَيَّ للحُبْشانِ دَيْنا

قال ابنُ إسحاقَ : فخرجوا يتساقطون بكلِّ طريقٍ ويهلكون بكلِّ مَهْلَكٍ على كلِّ مَنْهَلٍ. وأُصيبَ أبرهةُ في جسده وخرجوا به معهم تسقط أنامله أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مِدَّةٌ تَمِثُّ (تسيل) قَيْحا ودما، حتى قدموا به صنعاء وهو مثلُ فرخ الطّائر. فما مات حتّى انْصَدَعَ صدرُه عن قلبه، فيما يزعمون.

قال ابنُ إسحاقَ : حدثني يعقوبُ بنُ عُتْبَةَ أنّه حُدِّثَ أنّ أوّلَ ما رُئِيَتْ الحَصْبَةُ والجُدَرِيُّ بأرض العرب ذلك العامُ، وأنّه أوّلُ ما رُئِيَ بها مَرائِرُ الشّجر الحَرْمَلِ والحَنْظَلِ والعُشَرِ ذلك العامُ.

قال ابنُ إسحاقَ : فلمّا بعث اللهُ محمّدا صلّى اللّه عليه وعلى آله، كان ممّا يَعُدُّ اللهُ على قريشٍ من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدّتهم، كما قال تعالى في سورة الفيل.

قال ابنُ هشام في تفسير سورة الفيل : الأبابيلُ : الجماعات، ولم تتكلّم لها العربُ بواحدٍ علمناه. قال : وأمّا السّجّيلُ، فأخبرني يونسُ النّحويّ وأبو عُبَيْدَةَ أنّه عند العرب : الشّديدُ الصّلبُ. قال : وزعم بعض المفسّرين أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمةً واحدةً، وأنّها <سِنْجٌ> و <جِلٌّ> ؛ فالسِّنْجُ : الحجرُ، والجِلُّ : الطّينُ. يقول : الحجارة من هذين الجنسين ؛ الحجر والطّين. قال : والعَصْفُ : ورقُ الزّرع الذي لم يُقْصَبْ. وقال الكِسائِيُّ : سمعتُ بعض النّحويّين يقول : واحد الأبابيل : إبِّيلٌ. وقال

كثيرٍ من السّلف : الأبابيل : الفِرَقُ من الطّير التي يتبعُ بعضُها بعضًا من هاهنا وهاهنا. وعن ابن عبّاسٍ : كان لها خراطيمُ كخراطيمِ الطّير، وأكُفٌّ كَأكُفِّ الكلاب.

وروى ابنُ إسحاقَ عن عائشة رضي الله عنها : لقد رأيتُ قائدَ الفيلِ وسائسَهُ أعْمَيَيْنِ مُقْعَدَيْنِ يستطعمان. وتقدّم أنّ سائس الفيل كان اسمه أُنَيْسا، فأمّا قائدُه فلم يُسَمَّ. والله أعلم.

وفي عامها ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله على المشهور. وقيل : كان قبلَ مولده بسنين.

قال ابنُ إسحاقَ وغيرُه : فلمّا هلك أبرهةُ، مَلَكَ الحبشةَ بعدَه ابنُه يَكْسُومُ، ثمّ من بعده أخوه مسروقُ بنُ أبرهةَ، وهو آخر ملوكهم، وهو الذي انتزع سيفُ بنُ ذي يَزَنَ الحِمْيَرِيُّ المُلْكَ من بعده بالجيش الذي قَدِمَ بهم من عند كِسْرى أنو شِرْوانَ، كما سيأتي بيانه.

ولمّا هلك أبرهةُ وابناه وزال مُلْكُ الحبشةِ عن اليمن، هُجِرَ القُلَّيْسُ الذي كان بناه أبرهةُ وأراد صَرْفَ حجِّ العرب إليه لجهله وقلّة عقله، وأصبح يَبابًا لا أنيسَ به. وكان قد بناه على صنمين وهما كُعَيْبٌ وامرأتُه، وكانا من خشب طول كلٍّ

منهما ستون ذراعا في السماء، وكانا مصحوبين من الجانّ، ولهذا كان لا يتعرّض أحد إلى أخذ شيء من بناء القُلَّيْسِ وأمتعته إلّا أصابوه بسوء.

ذِكْرُ خروج المُلْكِ عن الحبشة ورجوعِه إلى سيفِ بنِ ذي يَزَنَ

قال محمّد بنُ إسحاقَ رحمه الله : فلمّا هلك أبرهةُ ملك الحبشة يَكْسُومُ بنُ أبرهةَ وبه كان يُكْنى، فلمّا هلك يكسوم مَلَكَ اليمنَ في الحبشة أخوه مسروقُ بنُ أبرهةَ. قال : فلمّا طال البلاء على أهل اليمن خرج سيفُ بنُ ذي يَزَنَ الحِمْيَرِيّ، وكان سيفٌ يُكْنى أبا مُرَّةَ. قَدِمَ سيفٌ على قيصرَ ملك الرّوم فشكا إليه ما هم فيه وسأله أن يُخْرِجَهم عنه ويَلِيَهم هو ويُخْرِجَ إليهم من شاء من الرّوم فيكون له مُلْكُ اليمنِ، فلم يُشْكِهِ. فخرج حتّى أتى النُّعمانَ بنَ المنذرِ وهو عامل كسرى

على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النُّعمان : إن لي عند كسرة وِفادَةٌ في كلِّ عامٍ، فَأَقِمْ عندي حتّى يكون ذلك. ففعل، ثمّ خرج معه فأدخله على كِسْرى، وكان كسرى يجلس في إيوانِ مجلسه الذي فيه تاجُه. وكان تاجُه مثلَ القَنْقَلِ (مكيال عظيم ضخم) العظيم، فيما يزعمون، يُضرَبُ فيه الياقوتُ والزَّبَرْجَدُ واللُّؤْلُؤُ بالذّهب والفضّة مُعَلَّقًا بسلسلة في رأسِ طاقةٍ في مجلسه ذلك. وكانت عُنُقُه لا تحملُ تاجَه إنّما يُسْتَرُ بالثّياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ثمّ يُدْخِلُ رأسه في تاجِه. فإذا استوى في مجلسه كُشِفَ عنه الثّيابُ، فلا يراه أحدٌ لم يره قبلَ ذلك إلّا بَرَكَ هيبةً له. فلمّا دخل عليه طأطأ رأسه فقال الملك : إنّ هذا الأحمق يدخل عليّ من هذا الباب الطّويل ثمّ يُطَأْطِئُ رأسه ! فقيل ذلك لسيفٍ. فقال : إنّما فعلت هذا لِهَمِّي، لأنّه يضيق عنه كلُّ شيء. ثمّ قال : أيها الملك، غَلَبَتْنَا على بلادنا الأَغْرِبَةُ (سود البشرة). قال كِسْرى : أيُّ الأغربةِ ؛ الحبشةُ أم السِّنْدُ ؟ قال : بل الحبشةُ، فجِئْتُكَ لِتَنْصُرَنِي، ويكون مُلْكُ بلادي لكَ. فقال له كسرى : بَعُدَتْ بلادُك مع قِلَّة خيرها، فلم أكن لِأُوَرِّطَ جيشا من فارِسَ بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك. ثمّ أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ، وكساه كُسْوَةً حسنةً، فلمّا قبض ذلك

منه سيفٌ خرج فجعل يَنْثُرُ ذلك الوَرِقَ للنّاس. فبلغ ذلك الملكَ. فقال : إنّ لهذا لشأنا. ثمّ بعث إليه فقال : عَمَدْتَ إلى حِباءِ (عطاء) الملِكِ تنثره للنّاس. قال : وما أصنع بهذا ؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضّة. يُرَغِّبُهُ فيها. فجمع كِسْرى مَرَازِبَتَهُ، فقال لهم : ما تَرَوْنَ في أمر هذا الرّجل وما جاء له ؟ فقال قائل : أيّها الملك، إنّ في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل، فلو أنّك بعثتهم معهم، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظَفِرُوا كان مُلْكًا ازددته. فبعث معه كسرى من كان في سجونه، وكانوا ثمانمائةِ رجلٍ، واستعمل عليهم وَهْرِزَ، وكان ذا سِنٍّ فيهم وأفضَلَهم حسبا وبيتا. فخرجوا في ثمان سفنٍ، فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ستُّ سفائن. فجمع سيفٌ إلى وَهْرِزَ من استطاع من قومه، وقال له : رجلي ورجلُكَ حتّى نموت جميعا أو نَظْفَرَ جميعا. فقال له وَهْرِزُ : أنصفتَ. وخرج إليه مسروق بنُ أبرهةَ، مَلِكُ اليمن، وجمع إليه جنده، فأرسل إليهم وَهْرِزُ ابنا له ؛ ليقاتلهم فيختبر قتالهم. فقُتِلَ ابنُ وَهْرِزَ، فزاده ذلك حَنَقا عليهم. فلمّا تواقف النّاس على مَصَافِّهم، قال وَهْرِزُ : أروني مَلِكَهم. فقالوا له : أتَرى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم. قالوا : ذلك ملكهم. فقال : اتركوه.

فوقفوا طويلا، ثمّ قال : عَلامَ هو ؟ قالوا : قد تحَوَّلَ على الفرس. قال : اُتركوه. فتركوه طويلا، ثمّ قال : علام هو ؟ قالوا : على البغلة. قال وَهْرِزُ : بنتُ الحمار، ذلّ وذلّ مُلْكُهُ، إنّي سأرميه، فإن رأيتم أصحابَه لم يتحركوا فاثبتوا حتّى أوذنكم فإنّي قد أخطأت الرّجل، وإن رأيتم القومَ قد استداروا به وَلَاثُوا (التفّوا حوله) فقد أصبت الرّجل فاحْمِلوا عليهم. ثمّ وَتَرَ قوسه وكانت - فيما يزعمون - لا يوتِرُها غيرُه من شدّتها. وأمر بحاجبيه فعُصّبا له، ثمّ رماه فَصَكَّ الياقوتةَ التي بين عينيه، وتغلغلت النُّشَّابَةُ (النّبل) في رأسه حتى خرجت من قَفاه، ونُكِسَ عن دابّته واستدارت الحبشة ولاثَتْ به، وحَمَلَتْ عليهم الفُرْسُ وانهزموا فقُتِلوا وهربوا في كلِّ وجه، وأقبل وَهْرِزُ ليدخل صنعاء حتّى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايتي مُنَكَّسَةً أبدا، اِهدموا الباب. فهُدِمَ، ثمّ دخلها ناصبا رايتَه.ووفدت العرب من الحِجاز وغيرها على سيفٍ يُهَنِّؤونه بعَوْدِ المُلْكِ إليه، وامْتَدَحوه. فكان من جملة من وفد عليه قريشٌ وفيهم عبد المطّلب ابنُ هاشم، فبشّره سيفٌ برسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله وأخبره بما يعلم من أمره.

قال ابنُ إسحاقَ : وأقام وَهْرِزُ والفُرْسُ باليمن، فمن بقيّة ذلك الجيش من الفُرْسِ الأبناء الذين باليمن اليومَ. وكان مُلْكُ الحبشةِ باليمن فيما بين أن دخلها أرياطُ إلى أن قتلت الفُرْسُ مسروقَ بنَ أبرهةَ وأخرجتِ الحبشةَ، اِثْنَتَيْنِ وسبعين سنةً، توارث ذلك منهم أربعةٌ ؛ أرياطُ ثمّ أبرهةُ ثمّ يَكْسومُ بنُ أبرهَةَ ثمّ مسروقُ بنُ أبرهةَ.

ذكر ما آل إليه أمر الفُرْسِ باليمن

قال ابنُ هشامٍ : ثمّ مات وَهْرِزُ، فأمّر كسرى ابنَه المَرْزُبانَ بنَ وَهْرِزَ على اليمن، ثمّ مات المرْزُبانُ، فأمّر كسرى ابنَه التَّيْنُجانَ، ثمّ مات فأمّر ابنَ التَّينُجانِ، ثمّ عزله عن اليمن وأمّر عليها باذانَ، وفي زمانه بُعث رسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله. قال ابنُ هشامٍ : فبلغني عن الزُّهريّ أنّه قال : كتب كسرى إلى باذانَ : إنّه بلغني أنّ رجلا من قريشٍ خرج بمكّةَ، يزعم أنّه نبيّ، فَسِرْ إليه فاسْتَتِبْه، فإن تاب وإلّا فابعث إليّ

برأسه. فبعث باذانُ بكتاب كسرى إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله، فكتب إليه رسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله : إنّ اللّهَ قد وعدني أن يُقْتَلَ كسرى في يوم كذا وكذا من شهر كذا. فلمّا أتى باذانَ الكتابُ، وقف لينتظر، وقال : إن كان نبيّا فسيكون ما قال. فقتل اللّهُ كسرى في اليوم الذي قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله. قال ابنُ هشامٍ : على يديْ ابنه شيرَوَيْهِ. وقال بعضهم : بنوه تَمالَؤوا عليه. وكسرى هذا هو أَبْرَوِيزُ بنُ هُرْمُزَ بنِ أنو شِرْوانَ بنِ قُباذَ، وهو الذي غلب الرّومَ في قوله تعالى في فواتح سورة الروم.

قال السُّهيليّ : وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشرٍ خَلَوْنَ من جمادى الأولى، سنة تِسْعٍ من الهجرة. وكان، والله أعلم، لمّا كتب إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يدعوه إلى الإسلام، فغضب ومزّق كتابَه، كتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال.

قال الزُّهريّ : فلمّا بلغ باذانَ قتلُ كسرى بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفُرْسِ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وعلى آله. فقالت الرُّسْلُ : إلى مَن نحن يا رسول اللّه ؟ قال : أنتم منّا وإلينا، أهلَ البيت. قال الزّهريّ : ومِن ثَمَّ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : سلمانُ منّا أهلَ البيت. والظّاهر أنّ هذا كان بعد ما هاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إلى المدينة، ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم النّاس الخيرَ ودعوتهم إلى اللّه عزّ وجلّ. فبعث أوّلا خالَ بنَ الوليدِ وعليَّ بنَ أبي طالبٍ، ثمّ أتبعهما أبا موسى الأشعريَّ ومعاذَ بنَ جبلٍ. ودانت اليمنُ وأهلُها للإسلام، ومات باذانُ فقام بعده ولدُه شَهْرُ بنُ باذانَ وهو الذي قتله الأسودُ العنسيّ حين تنبّأ وأخذ زوجته وأجلى عن اليمن نُوَّابَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فلمّا قُتِلَ الأسودُ عادت اليد الإسلاميّة عليها. قال ابنُ هشامٍ : وهذا الذي عنى به سَطيحٌ بقوله : نبيٌّ زَكِيٌّ، يأتيه الوحي من قِبَلِ العليّ. والذي عنى شِقٌّ بقوله : بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحقّ والعدل بين أهل الدّين والفضل، يكون المُلْكُ في قومه إلى يوم الفصل.

قال ابنُ إسحاقَ : وكان في حَجَرٍ باليمن، فيما يزعمون، كتابٌ بالزّبور كُتِبَ في الزّمان الأوّل : لِمن مُلْكُ ذِمارْ ؟ لِحِمْيَرَ

الأخيار، لِمن مُلْكُ ذمار ؟ للحبشةِ الأشرار، لِمن ملك ذمار ؟ لِفارسَ الأحرار، لِمَنْ مُلْكُ ذِمارْ ؟ لقريشٍ التُّجَّار.

ويقال : إنّ هذا الكلامَ الذي ذكره محمّدُ ابنُ إسحاقَ وُجِدَ مكتوبا عند قبر هود عليه السّلام، حين كشفت الرّيحُ عن قبره بأرض اليمن، وذلك قبل زمن بلقيسَ بيسير في أيام مُلْكِ بنِ ذي المنارِ أخي عمرٍو ذي الأذعار بنِ المنارِ. ويقال: كان مكتوبا على منبر هود أيضا وهو من كلامه عليه السلام. حكاه السُّهيليّ. واللّه أعلم.

قصّة السّاطِرونِ صاحب الحَضْرِ

وقد ذكر قصّته هاهنا عبدُ الملك بنُ هشامٍ لأجل ما قاله علماء النّسب أنّ النّعمانَ بنَ المنذر الذي تقدّم ذكره في ورود سيفِ بنِ ذي يَزَنَ عليه وسؤالِه في ردّ مُلْكِ اليمن إليه، أنّه

من سلالة السّاطِرونِ صاحب الحَضْرِ. وقد قال ابنُ إسحاقَ أنّ النُّعمانَ بنَ المنذرِ من ذرّيّة ربيعة بنِ نَصْرٍ، وأنّه روى عن جُبيْرِ بنِ مُطْعِمٍ أنّه من أشلاءِ قُنُصِ بنِ مَعَدِّ بنِ عدنان. والحَضْرُ حِصنٌ عظيم بناه هذا الملك وهو السّاطِرونُ على حافّة الفرات، وهو مُنيفٌ مرتفع البناء واسع الرّحبة والفِناء، دَوْرُهُ بقدر مدينة عظيمة، وهو في غاية الإحكام والبهاء والحُسن والسَّناءِ، وإليه يُجْبى ما حولَه من الأقطار والأرجاء. واسمُ السَّاطِرونِ الضَّيْزَنُ بنُ معاويةَ بنِ عَبيدِ بنِ أَجْرَمَ، من بني سَليحِ بنِ حُلْوانَ بنِ الحافِ بن قُضاعَةَ. كذا نسبه ابن الكلبيّ. وقال غيره : كان من الجَرامِقَة وكان أحدَ ملوك الطّوائف، وكان يَقْدُمُهم إذا اجتمعوا لحرب عدوّ من غيرهم، وكان حِصْنُه بين دِجْلَةَ والفُراتِ.

ذَكَرَ السُّهيليّ أنّ سابورَ بنَ أَرْدَشيرَ بنِ بابكَ، أوّلُ ملوك بني ساسان، غزا صاحبَ الحَضْرِ، فأذلّ ملوك الطّوائفِ وردّ الملك إلى الأكاسرةِ. وعلى خِلافِ ما ذكره ابنُ هشامٍ أنّ سابورَ ذا الأكتاف بنَ هُرْمُزَ غَزا السّاطِرونَ، فهو بعد ذلك بكثير.

قال ابنُ هشامٍ : وكان كسرى سابورُ ذو الأكتافِ غزا السّاطِرونَ مَلِكَ الحَضْرِ. فحصره سَنَتَيْنِ، وقال غيره : أربعَ سنين. وذلك لأنّه كان أغار على بلاد سابورَ في غيبته بأرض العراق. فأشرفت بنت السّاطِرونِ وكان اسمها النَّضِيرَةُ، فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مُكَلَّلٌ بالزَّبَرْجَدِ والياقوت واللُّؤْلُؤ وكان جميلا، فدَسَّت إليه : أتتزوّجني إن فتحتُ لك بابَ الحَضْرِ ؟ فقال : نعم. فلمّا أمسى ساطرونُ شَرِبَ حتّى سَكِرَ، وكان لا يبيتُ إلّا سكرانَ، فأخذت مفاتيحَ بابِ الحَضْرِ من تحتِ رأسِه وبعثتْ بها مع مولى لها ففتح البابَ. ويقال : بل دَلَّتْهم على نهرٍ يدخل منه الماء مُتَّسِعٍ، فولَجوا منه إلى الحضر. ويقال : بل دلّتهم على طِلَّسْمٍ كان في الحَضْرِ. وكان في علمهم أنّه لا يُفْتَحُ حتّى تُؤْخَذَ حمامةٌ ورْقاءُ وتُخَضَّبُ رجلاها بحَيْضِ جاريةٍ بِكْرٍ زرقاء، ثمّ تُرْسَلُ فإذا وقعت على سور الحَضْرِ سقط ذلك الطِّلَّسْمُ فيُفْتَحُ الباب. ففعل ذلك فانفتح الباب، فدخلَ سابورُ فقتل ساطِرونَ واستباح الحَضْرَ وخَرَّبَه، وسار بها معه فتزوّجها، أي ابنة ساطرون. فبينا هي نائمةٌ على فراشها ليلا

إذ جعلت تَمَلْمَلُ لا تنامُ، فدعا لها بالشّمع ففتّش فراشها فوجد عليه ورقة آسٍ فقال لها سابورُ : أهذا الذي أسهركِ ؟ قالت : نعم. قال : فما كان أبوكِ يصنعُ بكِ ؟ قالت : كان يفرشُ لي الدّيباجَ ويُلْبِسُني الحريرَ ويُطْعِمني المُخَّ ويسقيني الخَمْرَ. قال : أَفكان جزاءُ أبيك ما صنعتِ به ؟ أنتِ إليّ بذلك أسرعُ. ثمّ أمر بها فرُبِطَتْ قرونُ رأسها بذَنَبِ فَرَسٍ، ثمّ ركضت الفَرَسُ حتّى قتلها.

خبر ملوك الطّوائف

وأمّا صاحب الحَضْرِ وهو ساطِرونُ فقد كان متقدّما على سائر ملوك الطّوائف وكان من زمن إسكندرَ بنِ فيلبسَ المَقْدونيِّ اليونانيِّ، وذلك لأنّه لمّا غلب على مَلِكِ الفُرْسِ دارا بنِ دارا وأذلّ مملكته وخرّب بلادَه واستباح بيضةَ قومِه ونهب حواصله ومزّق شمل الفُرْسِ شَذَرَ مَذَرَ، عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شَمْلٌ ولا يَلْتَئِمَ لهم أمرٌ. فجعل يُقِرُّ كلَّ مَلِكٍ على

طائفة من النّاس في إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها. فاستمرّ كلُّ مَلِكٍ منهم يحمي حوزته ويحفظ حِصَّتَهُ ويستغلّ مَحِلَّتَهُ، فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد من قومه. فاستمرّ الأمر كذلك قريبا من خمسمائة سنة، حتّى كان أزْدَشيرُ بنُ بابَكَ من بني ساسانَ بنِ بَهْمَنَ بنِ إسفنديارَ بنِ يشتاسب بنِ لهراسبَ، فأعاد مُلْكَهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالكُ برُمَّتها إليه وأزال ممالكَ ملوكِ الطّوائف ولم يبقَ منهم تالِدٌ ولا طارف، وكان تأخّر عليه حصار صاحب الحَضْرِ الذي كان أكبَرَهم وأشدَّهم وأعظمهم، إذ كان رئيسَهم ومُقَدَّمهم، فلمّا مات أزدشيرُ تصدّى له ولدُه سابورُ فحاصرَه حتّى أخذه كما تقدّم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

باب ذكر بني إسماعيل وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

احتمل إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام مع أمّه هاجَرَ فأسكنهما بوادي مكّةَ بين جبال فارانَ حيث لا أنيس به ولا حَسيسَ، وكان إسماعيل رضيعا. ثمّ تركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ليس عند أمّه سوى جِرابٍ فيه تمر ووِكاءٌ فيه ماء. فلمّا نفِذَ ذلك أنبع اللّه لهاجرَ زمزمَ التي هي طعامُ طُعْمٍ وشفاء سُقْمٍ. ثمّ نزلت جُرْهُمٌ وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين، عند هاجرَ بمكّةَ، على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به. فاستأنست هاجرُ بهم، وجعل الخليل عليه السلام يُطالِعُ أمرهم في كلِّ حينٍ. يقال : إنه كان يركب البُراقَ من بلاد المقدس في ذهابه وإيابه. ثمّ لمّا تَرعرعَ الغلامُ وشَبَّ وبلغ مع

أبيه السّعيَ كانت قصّة الذّبح. ثمّ لمّا كَبِرَ تزوّج من جُرْهُمٍ امرأةً، ثمّ فارقها على أمر أبيه وتزوّج غيرَها، السيّدةَ بنتُ مُضاضِ بنِ عمرٍو الجُرْهُمِيّ، وجاءته بالبنين الاثنيْ عَشَرَ، وهم : نابِتٌ وقَيْدَرُ وميشا ومِسْمَعٌ وماشي ودُما وأُدَرُ ويَطورُ ونَبِشٌ وطيما وقَيْذُما. هكذا ذكره محمّد بنُ إسحاقَ وغيرُه. وله ابنة واحدة اسمها نسمةٌ وهي التي زوّجها من ابنِ أخيه العيصِ بنِ إسحاقَ بنِ إبرهيمَ، فوُلِدَ له منها الرّومُ واليونانُ والأشبانُ أيضا. ثمّ جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم، يرجعون في أنسابهم إلى ولدَيْه نابتٍ وقَيْدَرٍ. وكان الرئيسُ بعده والقائمُ بالأمور الحاكمُ في مكّةَ والنّاظرُ في أمر البيت وزمزمَ، نابتَ بنَ إسماعيلَ، وهو ابنُ أخت الجُرْهُمِيّينَ، ثمّ تغلّبت جُرْهُمٌ على البيتِ، طمعا في بني أختهم فحكموا بمكّةَ وما والاها عِوَضًا عن بني إسماعيلَ مدّة طويلة. فكان أوّلُ من صار إليه أمر البيت بعد نابتٍ مُضاضَ بنَ عمرٍو بنِ سعدِ ابن الرقيبِ بنِ هينِ بنِ نبتِ بنِ جُرْهُمٍ. وكان مُضاضُ نازلا بأعلى مكّةَ بقُعَيْقِعانَ، وكان السَّمَيْدَعُ سيّدُ قَطوراءَ نازلا بقومه في أسفلِ مكّةَ، وكلٌّ منهما يَعْشُرُ (يأخذ عُشْرَ الأموال) مَن مرَّ به مُجْتازا إلى مكّةَ. ثمّ وقع بين جُرْهُمٍ وقَطوراءَ فاقتتلوا، فقُتل السَّمَيْدعُ واستوثق الأمرُ لمُضاضٍ وهو الحاكمُ بمكّةَ والبيتِ لا ينازعه

في ذلك ولد إسماعيلَ مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكّةَ وبغيرها، وذلك لخُؤولتهم له. ثمّ صار المُلْكُ بعده إلى ابنه الحارثِ ثمّ إلى عمرِو بنِ الحارثِ. ثمّ بَغَتْ جرهمٌ بمكّةَ وأكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام، حتّى ذُكِرَ أنّ رجلا منهم يقال له : إسافُ ابنُ بَغْيٍ، وامرأةً يقال لها : نائلة بنتُ وائلٍ، اجتمعا في الكعبة فكان منه إليها الفاحشةُ، فمسخهما اللّهُ حجريْنِ فنَصَبَهما النّاس قريبا من البيت ليعتبروا بهما. فلمّا طال المَطالُ بعد ذلك بِمُدَدٍ عُبِدا من دون اللّه في زمن خُزاعَةَ. فكانا صنمين منصوبين يقال لهما : إسافٌ ونائلةٌ. فلمّا أكثرت جُرْهُمٌ البَغْيَ بالبلد الحرام تَمَالَأَتْ عليهم خُزاعَةُ الذين كانوا نزلوا حول الحرمِ، وكانوا من ذرّيّةِ عمرِو بنِ عامرٍ الذي خرج من اليمن لأجل ما توقّع من سَيْلِ العَرِمِ. وقيل : إنّ خُزاعَةَ من بني إسماعيلَ. فاللّه أعلم.

والمقصود أنّهم اجتمعوا لِحَرْبهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا. واعتزل بنو إسماعيل كِلا الفريقين، فغلبت خُزاعَةُ، وهم بنو بكرِ بنِ عبدِ مناةَ وغُبْشانُ، وأجْلوهم عن البيت. فعَمَدَ عمرُو بنُ الحارثِ بنِ مُضاضٍ الجُرْهُمِيّ - وهو سيّدهم - إلى غَزَالَيْ الكعبة، وهما من ذهب، وحَجَرِ الرّكن - وهو الحجر

الأسود - وإلى سيوف مُحَلّاةٍ وأشياءَ أُخَرَ، فدفنها في زمزم وعلّم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن.

قصّةُ خُزاعَةَ وعمرِو بنِ لُحَيٍّ وعبادةِ العربِ للأصنام

قال ابنُ إسحاقَ : ثمّ إنّ غُبْشانَ من خُزاعَةَ ولِيَتْ البيتَ دون بني بكرِ ابنِ عبدِ مناةَ، وكان الذي يليه منهم عمرَو بنَ الحارثِ الغُبْشانيّ. وقريشٌ إذ ذاك حُلولٌ (النّازلون بالمكان أو الساكنون بالبيت) وصِرْمٌ (الجماعة المنعزلة والقطعة من كل شيء)، وبيوتاتٌ متفرّقون من بني كِنانَةَ. قالوا : وإنّما سُمِّيَتْ خُزاعَةُ خُزاعَةَ لأنّهم تَخَزَّعوا (تأخّروا) من ولد عمرِو بنِ عامرٍ حين أقبلوا من اليمن يريدون الشامَ، فنزلوا بِمَرِّ الظَّهْرانِ فأقاموا به.

فَوَلِيَتْ خُزاعَةُ البيتَ يتوارثون ذلك كابِراً عن كابرٍ حتّى كان آخرَهم حُلَيْلُ بنُ حُبْشِيَّةَ بنِ سَلولِ بنِ كَعْبِ بنِ عَمْرِو بنِ

رَبيعَةَ الخُزاعِيُّ، الذي تزوّج قُصَيُّ بنُ كِلابٍ اِبنته حُبَّى، فولدت له بنيهِ الأربعةَ ؛ عبدَ الدّارِ وعبدَ منافٍ وعبدَ العُزَّى وعَبْدًا. واستمرّت خُزاعَةُ على ولايةِ البيت نحوا من ثلاثمائةِ سنةٍ، وقيل : خمسمائةِ سنةٍ. واللّه أعلم. وكانوا مشؤومين في ولايتهم وذلك لأنّ في زمانهم كان أولُ عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عَمرِو بنِ لُحَيٍّ فإنّه أول من دعاهم إلى ذلك. وكان ذا مال جزيلٍ جدا. يقال : إنّه فقأ أعين عشرين بعيرا وذلك عبارةٌ عن أنّه ملك عشرين ألفَ بعيرٍ. وكان من عادة العرب أنّ من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها لأنه يدفع بذلك العين عنها. ومِمَّن ذكر ذلك الأزرقيّ. وذكر السُّهيليّ أنّه ربّما ذبح أيام الحجيج عَشَرة آلاف بَدَنَةٍ وكسا عَشَرة آلاف حُلَّةٍ. في كلِّ سنة يُطْعِمُ العربَ ويَحيسُ لهم الحَيْسَ (تمر وأقط وسمن تُخْلَطُ وتُعجنُ وتسوّى كالثريد) بالسمن والعسل، ويَلُتُّ لهم السَّويقَ (طعام يُتَّخذُ من مدقوق الحِنطة والشّعير). وكان قولُه وفعلُه فيهم كالشّرع المُتَّبع لشرفه فيهم ومَحِلَّته عندهم وكَرَمِه عليهم.

قال ابنُ هشامٍ : حدّثني بعض أهل العلم أنّ عَمْرَو بنَ لُحَيٍّ خرج من مكّةَ إلى الشام في بعض أموره، فلمّا قَدِمَ مآبَ من

أرض البَلْقاءِ وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاقٍ، ويقال : ولد عِمْليقِ بنِ لاوَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، رآهم يعبدونَ الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها ؛ فنستمطرها فتُمْطِرُنا ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم : ألا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هُبَلُ. فقَدِمَ به مكّةَ فنصبه وأمر النّاسَ بعبادته وتعظيمه.

قال ابنُ إسحاقَ : ويزعمون أنّ أوّلَ ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام، أنّه كان لا يَظْعَنُ من مكّةَ ظاعِنٌ منهم، حين ضاقت عليهم والْتَمَسوا الفُسَحَ في البلاد، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة. حتّى سَلَخَ (مضى) ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتّى خَلَفَت الخُلوفُ ونسوا ما كانوا عليه.

وفي صحيح البخاريّ عن أبي رجاء العُطارِدِيّ قال : كنّا في الجاهليّة إذا لم نجد حجرا جَمَعْنا حَثْيَةً من التّراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثمّ طُفْنا به.

قال ابنُ إسحاقَ : واستبدلوا بِدِينِ إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، غيرَه فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلَهم من الضّلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسّكون بها ؛ من تعظيم البيت والطواف به، والحجّ والعمرة، والوقوف على عرفاتٍ والمُزْدَلِفَةِ، وهَدْيِ البُدْنِ، والإهلالِ بالحجّ والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس فيه. فكانت كِنانَةُ وقريشٌ إذا أهلّوا قالوا : لبَّيْك اللّهمّ لبَّيْك، لبّيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. فيُوَحِّدُونَه بالتَّلْبيةِ ثمّ يُدْخِلون معه أصنامهم ويجعلون مِلْكَها بيده.

وقد ذكر السُّهيليّ وغيرُه أنّ أوّل من لبّى هذه التَّلْبِيَةَ عمرُو بنُ لُحَيٍّ، وأنّ إبليسَ تبدّى له في صورة شيخ فجعل يُلَقِّنُهُ ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول، واتبعه العرب في ذلك. وثبت في الصّحيح أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله كان إذا سمعهم يقولون : لبّيك لا شريك لك. يقول : قَدْ قَدْ. أي حَسْبُ حَسْبُ.

وقال عبدُ اللّهِ بنُ الإمام أحمدَ عن عبد اللّه بنِ مسعود عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : إنّ أوّلَ من سَيَّبَ

السَّوائِبَ وعبدَ الأصنامَ، أبو خُزاعَةَ عَمْرُو بنُ عامرٍ، وإنّي رأيته يَجُرُّ أمعاءَه في النّار.

وهذا يقتضي أنّ عمرَو بنَ لُحَيٍّ هو أبو خزاعة الذي تُنْسَبُ إليه القبيلة بكمالها، كما زعم بعضهم من أهل النّسب فيما حكاه ابنُ إسحاقَ وغيرُه.

وهذا ذِكْرُ الأصنام التي كانت للعرب، بعد تبديلهم دينَ إسماعيلَ، على ما ذكره ابن إسحاق وغيره ؛ فكان وَدٌّ لبني كلبِ بنِ وَبْرَةَ بنِ تَغْلِبَ بنِ حُلْوانَ بنِ عِمْرانَ بنِ الحافِ بنِ قُضاعَةَ، وكان منصوبا بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وكان سُواعٌ لبني هُذَيْلِ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ، وكان منصوبا بمكان يقال له رُهاطٌ، وكان يَغُوثُ لبني أنْعُمٍ من طَيِّئٍ ولأهل جُرَشَ من مَذْحِجٍ، وكان منصوبا بجُرَشَ، وكان يَعُوقُ منصوبا بأرض هَمْدانَ من اليمن لبني خَيْوانَ بَطْنٍ من هَمْدانَ، وكان نَسْرٌ منصوبا بأرض حِمْيَرَ لقبيلةٍ يقال لهم ذو الكُلاعِ. وكان في دَوْسٍ صنم لعَمْرِو بنِ حُمَمَةَ الدّوسيّ.

قال ابنُ إسحاقَ : وكان لخَوْلانَ بأرضهم صنم يقال له عُمْيانِسُ، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قِسْما بينه وبين اللّه فيما يزعمون. فما دخل في حقّ عُمْيانِسَ من حقّ اللّه

قسموه له، تركوه له، وما دخل في حقّ اللّه من حقّ عُمْيانِسَ ردّوه عليه.

وكان لبني مِلْكانَ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيْمةَ بنِ مُدْرِكَةَ صنمٌ يقال له سَعْدٌ ؛ صخرة بِفَلاةٍ من أرضهم طويلةٌ، فأقبل رجل منهم بإبلٍ له مُؤَبَّلَةٍ (التي تُتَّخَذُ للاقتناء) ليَقِفَها عليه التماسَ بركته فيما يَزْعُم. فلمّا رأته الإبل، أي الصنم، وكانت مَرْعِيَّةً لا تُرْكَبُ، وكان الصنم يُهْراقُ عليه الدّماء نفرت منه فذهبت في كلِّ وجه، وغضب ربّها وأخذ حجرا فرماه به. ثمّ قال : لا بارك اللّه فيك، نفّرت عليّ إبلي. ثمّ خرج في طلبها.

ذكر السُّهيليّ أنّ أجأً وسلمى، وهما جبلان بأرض الحجاز، إنّما سُمِّيا باسم رجل اسمه أجَأُ بنُ عبدِ الحيِّ، فجر بسلمى بنتِ حامٍ، فصُلِبا في هذين الجبلين فعُرِفا به. وكان بين أجإٍ وسلمى صنم لطَيِّئٍ يقال له فِلْسٌ.

قال ابنُ إسحاقَ : واتّخذ أهل كلِّ دارٍ في دارهم صنما يعبدونه، فإذا أراد الرّجل منهم سفرا تمسّح به حين يركبُ فكان ذلك آخِرَ ما يصنع حين يتوجّه إلى سفره، وإذا قَدِمَ من سفره تمسّح به فكان ذلك أوّلَ ما يبدأُ به قبل أن يدخل على أهله.

قال ابنُ إسحاقَ : وقد كانت العرب اتّخذت مع الكعبة طواغيتَ وهي بيوتٌ تعظّمها كتعظيم الكعبة، لها سَدَنَةٌ وحُجَّابٌ، وتُهْدي لها كما تُهْدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها، وهي مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها، لأنّها بناءُ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام ومسجِدُهُ. فكانت لقريشٍ وبني كِنانَةَ العُزَّى بنَخْلَةَ، وكانت سَدَنَتُها وحُجَّابُها بني شَيْبانَ من سُلَيْمٍ حلفاء بني هاشمٍ. وقد خرّبها خالدُ بنُ الوليد زمن الفتح، كما سيأتي. وكانت اللّاتُ لثَقيفٍ بالطّ ائف، وخرّبها أبو سفيانَ والمُغيرَةُ بنُ شُعْبَةَ بعد مجيئِ أهل الطّائف، كما سيأتي إن شاء اللّه. وكانت مناةُ للأَوْسِ والخَزْرَجِ ومن دان بدينهم من أهل المدينة، على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّلِ بقُدَيْدٍ. وقد خرّبها أبو سفيانَ أيضا، وقيل عليّ بنُ أبي طالب عليه السّلام. وكان ذو الخَلَصَةِ لدَوْسٍ وخَثْعَمٍ وبَجيلَةَ ومن كان ببلادهم من العرب بتَبالَةَ، وكان يقال له الكعبة اليمانيّة ولبيت مكّةَ الكعبة الشامية، وقد خرّبه جَريرُ بنُ عبدِ اللّهِ البَجَلِيُّ. وكان فِلْسٌ لطَيِّئٍ ومن يليها بجَبَلَيْ طَيِّئٍ، بين أجأَ وسلمى، وهما جبلان مشهوران كما تقدّم. وكان رِئامٌ بيتا لحِمْيَرَ وأهل اليمن. وكانت رُضاءُ بيتا لبني رَبيعَةَ بنِ كَعْبِ بنِ سعدِ بنِ زيدِ مَناةَ بنِ تَميمٍ.

والمقصود أنّ هذه البيوت كلَّها هُدِمَتْ، لمّا جاء الإسلام جهّز رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إلى كلِّ بيتٍ من هذه سرايا تُخَرِّبُه، وإلى تلك الأصنام من كسّرها حتّى لم يَبْقَ للكعبة ما يُضاهيها، وعُبِدَ اللّه وحده لا شريك له كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء اللّه تعالى، وبه الثِّقَةُ.

خبر عدنان جدّ عرب الحجاز

لا خلاف أنّ عدنان من سلالةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهما السلام، واختلفوا في عِدَّةِ الآباءِ بينه وبين إسماعيلَ على أقوالٍ كثيرةٍ.

ذكر أبو جعفرٍ الطّبريُّ وغيرُه أنّ اللّهَ تعالى أوحى في زمن بُخْتُ نَصَّرَ إلى أرمياءَ بنِ حَلْقيا أنِ اذهب إلى بُخْتُ نَصَّرَ فأعلمه أنّي قد سلّطته على العرب. وأمر اللّه أرميا أن يحمل معه مَعَدَّ بنَ عدنانَ على البُراق كي لا تصيبَه النِّقمة فيهم،

فإنّي مستخرج من صُلْبِه نبيّا كريما أختِم به الرّسلَ. ففعل أرميا ذلك، واحتمل مَعَدًّا على البُراقِ إلى أرض الشّام، فنشأ مع بني إسرائيلَ مِمَّن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس، وتزوّج هناك امرأةً اسمُها مُعانَةُ بنتُ جَوْشَنَ من بني دُبِّ بنِ جُرْهُمٍ قبل أن يرجع إلى بلادِه. ثم عاد بعد أن هدأت الفِتَنُ وتَمَحَّضت جزيرة العرب، وكان رخيا كاتبُ أرمياءَ قد كتب نَسَبَهُ في كتابٍ عنده ليكون في خزانة أرمياءَ فيحفَظَ نَسَبَ مَعَدٍّ كذلك. واللّه أعلم. ولهذا كرِه مالكٌ رحمه اللّهُ رَفْعَ النَّسَبِ إلى ما بعد عدنانَ.

قال السُّهيليُّ : وإنّما تكلّمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يَكْرَهْهُ كابنِ إسحاقَ والبخاريّ والزّبيرِ بنِ بكّارٍ والطَّبَرِيّ وغيرِهم من العلماء. وأمّا مالكٌ رحمه اللّه فقد سُئِلَ عن الرّجل يرفع نَسَبَه إلى آدمَ فكَرِهَ ذلك وقال : من أين له علم ذلك ؟ فقيل له : فإلى إسماعيلَ ؟ فأنكر ذلك أيضا وقال : ومن يُخْبِرُه به ؟ وقول مالكٍ هذا نحوٌ ممّا رُوِيَ عن عُرْوَةَ بنِ الزّبير أنّه قال : ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنانَ وإسماعيلَ. وفي رواية : ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء عدنانَ ولا ما وراء قحطانَ إلا تَخَرُّصًا. وقال أبو

الأسودِ : سمعت أبا بكرِ بنِ سليمان بنِ أبي حَثْمَةَ - وكان مِن أعلمِ قريشٍ بأشعارها وأنسابها - يقول : ما وجدنا أحدا يعرف ما وراءَ مَعَدِّ بنِ عدنانَ في شعرِ شاعرٍ ولا علمِ عالمٍ. قال أبو عُمَرَ : وكان قومٌ من السّلفِ منهم عبدُ اللّهِ بنِ مسعودٍ وعمرُو بنُ ميمونِ الأوْدِيُّ ومحمّد بنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ إذا تلَوْا : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم ٩] قالوا : كَذَبَ النَّسَّابُونَ. وأمّا الأنسابُ إلى عدنانَ مِن سائرِ قبائلِ العربِ فمحفوظةٌ شهيرةٌ جدًّا لا يَتَمارى فيها اثنان، والنّسبُ النّبويُّ إليه أَظْهَرُ وأوْضَحُ من فَلَقِ الصّبحِ. وقد ورد حديثٌ مرفوعٌ بالنّصّ عليه، كما سَنُورِدُ في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذِكْرِ أنسابِها وانتظامِها في سِلْكِ النّسبِ الشّريفِ والأصلِ المُنيفِ، إن شاءَ اللّهُ تعالى وبه الثِّقةُ وعليه التُّكْلانُ، ولا حول ولا قوّة إلا باللّه العزيزِ الحكيمِ.

ذكر أصولِ أنسابِ عربِ الحجازِ إلى عدنانَ

وذلك لأنّ عدنانَ وُلِدَ له وَلَدانِ ؛ مَعَدٌّ وعَكٌّ. قال السُّهيليُّ : ولعدنانَ أيضا ابنٌ اسمُه الحارثُ وآخرُ يقال له المُذْهَبُ. وقد ذُكِرَ أيضا في بنيه الضَّحّاكُ، وقيل : إنّ الضّحّاك ابنٌ لِمَعَدٍّ لا ابنُ عدنانَ. وقيل : إنّ عَدَنَ، الذي تُعْرَفُ به مدينةُ عَدَنَ، وكذلك أَبْيَنُ كانا ابْنَيْنِ لعدنانَ. حكاه الطّبريُّ. فتزوّج عَكٌّ في الأشعريّينَ وسكن في بلادهم من اليمن فصارت لغتهم واحدةً.

وأمّا مَعَدٌّ فَوُلِدَ له أربعةٌ : نزارٌ وقُضاعَةُ وقَنَصٌ وإيادٌ. وكان قُضاعَةُ بِكْرَهُ وبه كان يُكْنى. وأمّا قَنَصٌ فيقال : إنّهم هلكوا ولم يَبْقَ لهم بقيّةٌ، إلّا أنّ النّعمانَ بنَ المنذرِ الذي كان نائبا لكسرى على الحِيرَةِ كان من سُلالَتِه، على قول طائفة من السّلف. واللّه أعلم. وأمّا نزارٌ فوُلِدَ له رَبيعَةُ ومُضَرُ وأنمارٌ. قال ابنُ هشامٍ وإيادُ بنُ نزارٍ. قال : وإيادٌ ومُضَرُ

شقيقان، أمّهما سَوْدَةُ بنتُ عَكٍّ بنِ عدنانَ، وأُمُّ رَبيعَةَ وأنْمارٍ شُقَيْقَةُ بنتُ عَكٍّ بنِ عدنانَ، ويقال : جُمْعَةُ بنتُ عَكٍّ بنِ عدنانَ. قال ابنُ إسحاقَ : فأمّا أنْمارٌ فهو والد خَثْعَمٍ وبَجيلَةَ قبيلةِ جَريرِ بنِ عبدِ اللّه البَجَلِيِّ، وقد تيامنت فلحقت باليمن.

قالوا: وكان مُضَرُ أوّلَ من حَدَا (ساق الإبل وهو يغنّي لها)، وذلك لأنّه كان حَسَنَ الصّوتِ، فسقط يوما عن بعيره فوَثَبَتْ يَدُهُ، فجعل يقول : وا يَدَيَّاهُ وا يَدَيَّاهُ. فأعْنَقَت (أسرعت) الإبل لذلك.

قال ابنُ إسحاقَ : فوَلَدَ مُضَرُ بنُ نزارٍ رجلين ؛ إلياسَ وعَيْلانَ. ووُلِدَ لإلياسَ مُدْرِكَةُ وطابِخَةُ وقَمْعَةُ، وأمّهم خِنْدِفُ بنتُ عِمْرانَ بنِ الحافِ بنِ قُضاعَةَ. وكان اسم مُدْرِكَةَ عامِرًا واسمُ طابِخَةَ عَمْرًا، ولكن اصطادا صيدا، فَبَيْنَا هما يَطْبُخانهِ إذ نفرت الإبل، فذهب عامر في طَلَبِها حتّى أدركها وجلس الآخر يَطْبُخُ. فلمّا راحا على أبيهما ذكرا له ذلك، فقال لعامر : أنتَ مُدْرِكَةُ وقال لعَمْرٍو : أنت طابِخَةُ. فولد مُدْرِكَةُ خُزَيْمَةَ وهُذَيْلا وأمّهما امرأة من قُضاعَةَ. وولد خزيمةُ كِنانَةَ وأسَدا وأسَدَةَ والهُونَ. وولد كِنانَةُ النَّضْرَ ومالِكًا وعبدَ مناةٍ ومِلْكانَ. وزاد أبو جعفرٍ الطَّبريُّ في أبناء كِنانَةَ على هؤلاء الأربعةِ،

عامرًا والحارثَ والنُّضَيْرَ وغَنْمًا وسعدًا وعَوْفًا وجَرْوَلًا والحُدالَ وغَزْوانَ.

الكلام على قريشٍ نسبًا واشتقاقا وفضلا، وهم بنو النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ

قال ابنُ إسحاقَ : وأمُّ النَّضْرِ بَرَّةُ بنتُ مُرِّ بنِ أَدِّ بنِ طابِخَةَ، وسائِرُ بنيه لامرأةٍ أخرى. وخالَفَهُ ابنُ هشامٍ، فجعل بَرَّةَ بنتَ مُرِّ أمَّ النَّضْرِ ومالكٍ ومِلْكانَ، وأمَّ عبدِ مَناةَ هالَةَ بنتَ سُوَيْدِ بنِ الغِطْريفِ من أزْدِ شَنوءَةَ. قال ابنُ هشامٍ : النَّضْرُ هو قريشٌ، فمن كان من ولده فهو قُرَشِيٌّ ومن لم يكن من ولده فليس بقرشيٍّ.

وقد روى البخاريّ من حديث كُلَيْبِ بنِ وائلٍ قال : قلتُ لرَبيبَةِ النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله - يعني زينبَ - : أخبريني عن النّبيّ أكان من مُضَرَ ؟ قالت : فمِمَّن كان إلّا من

مُضَرَ؟ من بني النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ. وقال الطّبرانيّ عن الجُفْشيشِ الكِنْدِيّ قال: جاء قومٌ من كِنْدَةَ إلى رسول اللّه فقالوا: أنت منّا. وادَّعَوْهُ. فقال: لا نَقْفوا أُمَّنا ولا نَنْتَفي من أبينا، نحن ولد النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ. وعن ابنِ عبّاس رضي اللّه عنه وأرضاه قال: جاء رجل من كِنْدَةَ يقال له الجُفْشيشُ إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله فقال: يا رسول اللّه، إنّا نَزْعُمُ أنّ عبدَ مَنَافٍ منّا. فأعرَضَ عنه، ثمّ عاد فقال مثلَ ذلك، فأعرض عنه، ثمّ عاد فقال مثلَ ذلك، فقال النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله: نحن بنو النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ لا نَقْفوا أمّنا ولا نَنْتَفي من أبينا. فقال الأشعَثُ: ألا كنتَ سَكَتَّ في المرّة الأولى. وفي رواية أنّ الأشعث قال: فواللّه لا أسمع أحدا نفى قريشا من النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ إلّا جَلَدْتُه الحَدَّ.

وأمّا اشتقاق قريش فقيل: من التَّقَرُّشِ أي التَّجَمُّعُ بعد التّفرّقِ، وذلك في زمن قُصَيِّ بنِ كِلاب فإنّهم كانوا متفرّقين فجَمعهم بالحَرَمِ. وقيل: سُمِيَت قريش من التّقرّش وهو التَّكَسُّبُ والتّجارة. حكاه ابنُ هشامٍ رحمه اللّه. وقيل من التَّفْتِيش. قال هشام ابنُ الكَلْبِيّ: كان النَّضْرُ بنُ كِنانَةَ تَسَمَّى قُرَيْشًا لأنّه كان يَقْرُشُ عن خَلَّةِ النّاسِ وحاجتهم فيسُدُّها

بماله. والتّقرّشُ هو التّفتيشُ. وكان بنوه يَقْرُشون أهلَ الموسمِ عن الحاجة فيَرْفِدونَهم بما يبلّغهم بلادهم، فسُمُّوا بذلك. ويقال في النّسبة إلى قريشٍ : قُرَشِيٌّ وقُرَيْشِيٌّ.

وقد روى مسلمٌ في صحيحه عن واثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : إنّ اللّه اصطفى كِنانَةَ من ولد إسماعيلَ، واصطفى قريشًا من كِنانَةَ واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ واصطفاني من بني هاشمٍ. قال أبو عُمَرَ ابنُ عبدِ البرِّ : يقال : بنو عبد المُطّلب فصيلةُ رسول اللّه، وبنو هاشم فَخِذُه، وبنو عبدِ مَنافٍ بطنُه وقريشٌ عِمارَتُه، وبنو كِنانَةَ قبيلتُه، ومُضَرُ شَعْبُه. صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه دائما إلى يومِ الدّينِ.

قال ابنُ إسحاقَ : فوَلدَ النَّضْرُ بنُ كِنانَةَ مالِكًا ويَخْلُدَ. قال ابنُ هشامٍ : والصَّلْتَ، وأمُّهم جميعا بنتُ سعدِ بنِ الظَّرِبِ العَدْوانِيُّ. وبنو مُلَيْحِ بنِ عَمْرٍو يُعْزَوْنَ إلى الصَّلْتِ بنِ النَّضْرِ.

قال ابنُ إسحاقَ : فوَلدَ مالكُ بنُ النَّضْرِ فِهْرَ بنَ مالكٍ، وأمّه جَنْدَلَةُ بنتُ الحارث بنِ مُضاضَ الأصغرِ، وولد فِهْرٌ غالِبًا ومُحارِبًا والحارثَ وأسدًا، وأمّهم ليلى بنتُ سعدِ بنِ هُذَيْلِ بنِ مُدْرِكَةَ. فولد غالبُ بنُ فِهْرٍ لُؤَيَّ بنَ غالبٍ وتَيْمَ بنَ غالبٍ، وهم

الـذين يقـال لهم : بنـو الأدْرَمِ، وأمّهمـا سـلمى بنتُ عَمْـرو الخُزاعِيِّ. فولد لُؤَيُّ بنُ غالبٍ أربعةَ نَفَرٍ : كَعْبًا وعامرا وسـامَةَ وعَوْفًا.

خرج سامَةُ بنُ لؤيٍّ إلى عُمانَ فكان بها. وذلك لِشَنَآنٍ كان بينـه وبين أخيـه عـامرٍ، فأخافـه عـامرٌ، فخـرج عنـه هاربـا إلى عمان. وقد مات بها غريبا، وذلك أنّه كان يرعى ناقتـه، فعَلِقَتْ حيَّةٌ بمِشْفَرِها (شفة البعير الغليظة)، فوقعت لِشِقِّها، ثمّ نَهَشَت الحيّةُ سامَةَ حتّى قتلته.

وأمّا عَوْفُ بنُ لـؤيٍّ فإنّـه خـرج - فيمـا يزعمـون - في رَكْبٍ من قـريشٍ حتّى إذا كـان بـأرض غَطَفانَ بنِ سـعدِ بنِ قيسِ بنِ عَيْلانَ أُبْطِئَ به، فانطلق من كان معه من قومـه. فأتـاه ثَعْلَبَـةُ بنُ سـعدٍ وهـو أخـوه في نسـبِ بـني ذُبْيـانَ، فحَبَسَـهُ وزوّجـه والْتَاطـهُ (ادّعـاه وليس لـه) وآخـاهُ، فشـاع نَسَـبُهُ في ذُبْيـانَ وثعلبةَ فيما يزعمون.

فولد كَعْبُ ابنُ لـؤيٍّ ثلاثـةً : مُرَّةَ وعَـدِيًّا وهُصَيْصًـا. وولـد مُرَّةُ ثلاثةً أيضا : كِلابَ بنَ مُرَّةَ وتَيْمَ بنَ مُرَّةَ ويَقَظَـةَ بنَ مُـرَّةَ، من أمّهـات ثلاثٍ. وولـد كِلابٌ رجلين : قُصَيَّ بنَ كِلابٍ وزُهْـرَةَ بنَ كِلابٍ، وأمّهما فاطمـةُ بنتُ سـعدِ بنِ سَيلٍ، أحـدِ الجَـدَرَةِ من

جُعْثُمَةَ الأَسْدِ من اليمن، حلفاء بني الدُّئِلِ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مَنَاةَ بنِ كِنانَةَ. وإنّما سُمُّوا الجَدَرَةَ لأنّ عامرَ بنَ عَمْرِو بنِ خُزَيْمَةَ بنِ جُعْثُمَةَ تزوّج بنتَ الحارثِ بنِ مُضاضٍ الجُرْهُمِيِّ، وكانت جُرْهُمٌ إذ ذاك وُلاةَ البيتِ، فبنى للكعبة جدارا فسُمِّي عامرٌ بذلك الجدار، فقيل لولدِه الجَدَرَةُ لذلك.

خبرُ قصيّ بنِ كِلابٍ

وما كان من أمرِه في ارتجاعه ولاية البيت إلى قريشٍ وانتزاعه ذلك من خُزاعَةَ، واجتماعِ قريشٍ إلى الحرمِ الذي جعله اللّه تعالى أمنا للعباد بعد تفريقها في البلاد وتمزُّقها في الجبال والمِهادِ، وذلك أنّه لمّا مات أبوه كِلابٌ تزوّجَ أمَّهُ رَبيعَةُ بنُ حرامٍ من عُذْرَةَ وخرج بها وبه إلى بلاده. ثمّ قَدِمَ قصيٌّ مكَّةَ وهو شابّ فتزوّج حُبَّى ابنةِ رئيسِ خُزاعَةَ حُلَيْلِ بنِ حُبْشِيَّةَ. فأمّا خُزاعَةُ فتزعم أنّ حُلَيْلا أوصى إلى قُصَيٍّ بولاية البيت لمّا رأى من كثرة نسله من ابنته، وقال : أنت أحقّ بذلك

منّي. إلّا أنّ إجازةَ الحجيجِ كانت إلى صوفَةَ وهم بنو الغَوْثِ بنِ مُرِّ بنِ أُدِّ بنِ طابِخَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ. فكان النّاسُ لا يرمون الجِمارَ حتّى يرموا ولا ينفرون من مِنًى حتّى ينفروا. فلم يزل كذلك فيهم حتّى انقرضوا. فورثهم ذلك بالقُعْدَدِ بنو سعدِ بنِ زَيْدِ مَناةَ بنِ تميمٍ، فكان أوّلُهم صفوانَ بنَ الحارثِ بنِ شِجْنَةَ بنِ عُطارِدَ بنِ عَوْفِ بنِ كَعْبِ بنِ سعدِ بنِ زيدِ مَناةَ بنِ تميمٍ، وكان ذلك في بيتِه حتّى قام على آخرِهم الإسلامُ وهو كَرِبُ بنُ صفوانَ. وكانت الإجازةُ من المُزْدَلِفَةِ إلى عَدْوانَ حتّى قام الإسلامُ على آخرِهم وهو أبو سيّارةَ عُمَيْلَةُ بنُ الأعزلِ، وقيل اسمُه العاصُ بنُ خالدٍ. وكان يجيزُ النّاسَ على أتانٍ له عوراءَ، مَكَثَ يدفعُ عليها في الموقف أربعين سنةً، وهو أوّلُ من جعل الدِّيَةَ مِائَةً وأوّلُ مم كان يقول : أَشْرِقْ ثَبيرُ كَيْما نُغيرُ. حكاه السُّهيليُّ.

وكان عامرُ بنُ الظَّرِبِ العَدْوانيُّ لا يكون بين العرب نائِرَةٌ (نأرت في النّاس نائرة : هاجت هائجة) إلّا تحاكموا إليه، فَيَرْضَوْنَ بما يقضي به. فتحاكموا إليه مرّةً في ميراث خُنْثى، فبات ليلته ساهرا يتروّى ماذا يحكم به، فرأته جارية له كانت ترعى عليه غَنَمَه اسمها سُخَيْلَةُ، فقالت له : ما لك - لا أبا لك

- الليلةَ ساهرًا ؟ فذكر لها ماهو مُفَكِّرٌ فيه، وقال : لعلّها يكون عندها في ذلك شيء. فقالت : أَتْبِعِ القضاءَ المَبالَ. فقال : فَرَّجْتِها واللّه يا سُخَيْلَةُ. وحكم بذلك.

وكان قصيٌّ في قومه سيّدا مُطاعا مُعَظَّما، والمقصود أنّه جمع قريشا من مُتَفَرِّقات مواضعهم من جزيرة العرب، واستعان بمن استطاع من أحياء العرب على حرب خُزاعَةَ وإجلائهم عن البيت الحرام وتسليمه إلى قصيٍّ. فكان بينهم قتال كثير ودماء غزيرة ثمّ تَداعَوْا إلى التّحكيم، فتحاكموا إلى يَعْمُرَ ابنِ عَوْفِ بنِ كَعْبِ بنِ عامرِ بنِ لَيْثِ بنِ بَكْرِ بنِ عبدِ مَناةَ بنِ كِنانَةَ، فحكم بأنّ قصيًّا أولى بالبيت من خُزاعَةَ وأنّ كلَّ دمٍ أصابه قصيٌّ من خُزاعَةَ وبني بَكْرٍ موضوعٌ يَشْدَخُهُ (أهدره وأبطله) تحت قدميه، وأنّ ما أصابته خُزاعَةُ وبنو بكرٍ من قريشٍ وكِنانَةَ وقُضاعَةَ مُؤَدَّاةً وأن يُخَلَّى بين قصيٍّ وبين مكَّةَ والكعبةِ، فسُمِّيَ يَعْمُرُ يومئذ الشَّدّاخَ.

قال ابنُ إسحاقَ : فوَلِيَ قصيٌّ البيتَ وأمْرَ مكّةَ وجمع قومَه من منازلهم إلى مكّةَ وتَمَلَّكَ على قومه وأهلِ مكَّةَ فملَّكوه، إلّا أنّه أقَرَّ للعربِ على ما كانوا عليه لأنّه لا يرى ذلك دِينًا في نفسه لا ينبغي تغييرُهُ. فأقَرَّ آل صفوانَ وعَدْوان والنَّسَأةَ (من

يقومون على النَّسيءِ) ومُرَّةَ بنَ عَوْفٍ على ما كانوا عليه. حتّى جاءَ الإسلامُ فهدم اللّهُ به ذلك كلَّه. فكان قصيٌّ أولَ بني كَعْبٍ أصاب مُلْكًا أطاعَ له به قومُه، فكانت إليه الحِجابَةُ والسِّقايَةُ والرِّفادَةُ والنَّدْوَةُ واللِّواءُ، فَحازَ شرف مكّةَ كلَّهُ، وقَطَّعَ مكَّةَ رِباعا بين قومِه فأنزل كلَّ قومٍ من قريشٍ منازلهم من مكَّةَ.

فرجع الحقُّ إلى نِصابِهِ ورُدَّ شارِدُ العدل بعد إيابه واستقرّت بقريشٍ الدارُ وقَضَتْ من خُزاعَةَ المُرادَ والأوطارَ، وتسلّمت بَيْتَهم العتيقَ القديمَ، لكن بما أحدثت خُزاعَةُ من عبادة الأوثان ونَصْبِها إيّاها حولَ الكعبة ونَحْرِهم لها وتَضَرُّعِهم عندها واستنصارهم بها وطَلَبِهم الرِّزقَ منها. وأنزل قصيٌّ قبائلَ قريشٍ أَباطِحَ مكّةَ وأنزلَ طائفةً منهم ظَواهِرَها، فكان يقال : قريشُ البِطاح وقريشُ الظَّواهِرِ. فكانت لقصيّ بنِ كِلابٍ جميعُ الرّئاسةِ من حِجابَةِ البيت وسِدانَتِه واللِّواءِ، وبنى دارا لإزاحَةِ الظُّلُمات وفصلِ الخصومات، سمّاها دارَ النَّدْوَةِ، إذا أَعْضَلَتْ قضيَّةٌ اجتمع الرّؤساءُ من كلِّ قبيلَةٍ فاشْتَوَرُوا فيها وفَصَلوها، ولا يُعْقَدُ عقدُ لِواءٍ ولا عَقْدُ نِكاحٍ إلّا بها. وكان بابُ هذه الدارِ إلى المسجد الحرامِ، ثمّ صارت هذه الدّارُ فيما بعدُ إلى حكيمِ بنِ حِزامٍ بعدَ بني عبدِ الدّارِ، فباعها في زمنِ معاويةَ

بمائة ألف درهمٍ، فلامَه على بيعها معاويةُ وقال : بِعْتَ مَكْرُمَةَ قومِك وشَرَفَهم بمائة ألف ؟ فقال : إنّما الشّرفُ اليومَ بالتّقوى، واللّهِ لقد ابْتَعْتُها في الجاهليّةِ بزِقِّ خمرٍ وها أنا قد بعتها بمائةِ ألفٍ وأُشْهِدُكم أنّ ثمنها صدقةٌ في سبيل اللّه، فأيُّنا المغبونُ ؟ ذكره الدَّارَقُطْنِيُّ في [أسماء رجال المُوَطَّإ].

وكانت إلى قصيٍّ سِقايَةُ الحجيج فلا يشربون إلا من ماء حِياضِهِ وكانت زمزمُ إذ ذاك مَطْموسَةً من زمن جُرْهُمٍ قد تَنَاسَوْا أمرها من تقادُمِ عهدِها ولا يهتدون إلى موضعها.

قال الواقِديُّ : وكان قصيٌّ أوّلَ من أحدث وَقِيدَ النَّارِ بالمُزْدَلِفَةِ ليهتديَ إليها من يأتي من عرفاتٍ، وأوّلَ من أحدث الرِّفادَةَ وهي إطعامُ الحجيج أيّامَ الموسمِ إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم.

قال ابنُ إسحاقَ : وذلك أنّ قصيًّا فرضه على قريشٍ فقال لهم : يا مَعْشَرَ قريشٍ إنّكم جيرانُ اللّهِ وأهلُ مكّةَ وأهلُ الحرمِ وإنّ الحاجَّ ضيفُ اللّهِ وزُوَّارُ بيته وهم أحقُّ بالضّيافةِ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيّامَ الحجِّ حتّى يصدروا عنكم. ففعلوا، فكانوا يُخْرِجون لذلك في كلِّ عامٍ من أموالهم خَرْجًا فيدفعونه إليه، فيصنع طعاما للنّاس أيّامَ مِنًى. فجرى ذلك

من أمرِه في الجاهليّةِ حتّى قامَ الإسلامُ، ثمّ جرى في الإسلامِ إلى يومِك هذا فهو الطّعامُ الذي يصنعه السُّلطانُ كلَّ عامٍ بِمِنًى للنّاسِ حتّى ينقضيَ الحجُّ.

ثمّ أُمِرَ بإخراج طائفةٍ من بيتِ المال فيُصْرفَ في حملِ زادٍ وماءٍ لأبناء السبيلِ القاصدين إلى الحجّ، وهذا صنيع حسنٌ من وجوهٍ يطولُ ذكرها، ولكنّ الواجبَ أن يكونَ ذلك من خالصِ بيتِ المالِ من أجلِّ ما فيه والأوْلى أن يكون من جَوَّالي الذّمّةِ لأنّهم لا يحُجُّونَ البيتَ العتيقَ.

قال ابنُ إسحاقَ : ولمّا فرغ قصيٌّ من حربه انصرف أخوه رِزاحُ بنُ ربيعَةَ إلى بلاده بمن معه وإخوته من أبيه الثّلاثةِ وهم حُنٌّ ومحمودٌ وجُلْهُمَةُ.

فصلٌ

ثمّ لمّا كَبِرَ قصيٌّ فوّض أمرَ هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريشٍ وشرفها من الرِّفادَةِ والسِّقايَةِ والحِجابَةِ والنَّدْوَةِ إلى ابنه عبدِ الدّارِ، وكان أكبرَ ولدِه وإنّما خَصَّصَهُ بها كلِّها لأنّ بقيّةَ إخوته ؛ عبدَ مَنافٍ وعبدَ العُزَّى وعَبْدًا كانوا قد شَرُفُوا في زمن أبيهم وبلغوا في قومهم شرفا كبيرا، فأحبَّ قصيٌّ أن يُلْحِقَ بهم عبدَ الدّارِ في السُّؤْدُدِ فخصّصه بذلك. فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك، فلمّا انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك وقالوا: إنّما خصّص قصيٌّ عبدَ الدّارِ بذلك ليُلْحِقَهُ بإخوته فنحن نستحقّ ما كان آباؤنا يستحقّونه. وقال بنو عبدِ الدّارِ : هذا أمرٌ جعله لنا قصيٌّ فنحن أحقّ به. واختلفوا خلافا كثيرا وانقسمت بُطون قريشٍ فِرْقَتَيْنِ، ففِرقة بايعت بني عبدِ الدّارِ وحالفتهم وفِرْقَةٌ بايعت بني عبدِ مَنافٍ وحالفتهم على ذلك، ووضعوا أيديَهم عندَ الحِلْفِ في جَفْنَةٍ فيها طِيبٌ، ثمّ لمّا قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسُمُّوا حِلْفَ المُطَيَّبِين، وكان منهم من قبائل قريشٍ ؛ بنو أسَدِ بنِ عبدِ

العُزَّى بنِ قصيٍّ وبنو زُهْرَةَ وبنو تَيْمٍ وبنو الحارث بنِ فِهْرٍ، وكان مع بني عبدِ الدّارِ بنو مَخْزومٍ وبنو سَهْمٍ وبنو جُمَحَ وبنو عَدِيٍّ، واعتزلت بنو عامرِ بنِ لُؤَيٍّ ومُحاربُ بنُ فِهْرٍ الجميعَ فلم يكونوا مع واحد منهما. ثمّ اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرِّفادَةُ والسِّقايَةُ لبني عبدِ مَنافٍ، وأن تستقرَّ الحِجابَةُ والنَّدْوَةُ في بني عبدِ الدّارِ، فانْبَرَمَ الأمرُ على ذلك واستمرَّ.

قال ابنُ إسحاقَ رحمه الله : فولد عبدُ مَنافِ بنُ قصيّ أربعةَ نَفَرٍ ؛ هاشمًا وعبدَ شمْسٍ والمُطَّلِبَ - وأمّهم عاتكةُ بنتُ مُرَّةَ بنِ هلالٍ - ونوفلَ بنَ عبدِ مَنافِ وأمّه واقدةُ بنتُ عَمْرٍو المازِنِيَّةُ.

قال ابنُ هشامٍ رحمه الله : ووُلِدَ لعبدِ مَنافٍ أيضا أبو عَمْرٍو وتُماضِرُ وقِلابَةُ وحَيَّةُ ورَيْطَةُ وأُمُّ الأَخْثَمِ وأمُّ سفيانَ.

قال : وولد هاشمُ بنُ عبدِ مَنافٍ أربعةَ نَفَرٍ وخمس نِسوةٍ ؛ عبدَ المُطَّلِبِ وأَسَدًا وأبا صَيْفِيٍّ ونَضْلَةَ والشِّفاءَ وخالِدةَ وضعيفةَ ورُقَيَّةَ وحَيَّةَ. فأمّ عبدِ المُطَّلب ورُقَيَّةَ سلمى بنتُ عَمْرِو بنِ زيدِ بنِ لَبيدِ بنِ خِداشِ بنِ عامرِ بنْ غَنْمِ بنِ عَدِيِّ بنِ النّجّارِ بنِ المدينةِ. وولد عبدُ المُطَّلِبِ عَشَرةَ نَفَرٍ وسِتَّ نسوةٍ وهم ؛ العبّاسُ وحمزةُ وعبدُ اللّهِ وأبو طالبٍ -- واسمه

عبدُ مَنافٍ - والزُّبَيْرُ والحارثُ - وكان بِكْرَ أبيه وبه كان يُكْنى - وجَحْلٌ ومنهم من يقول حَجْلٌ، وكان يُلَقَّبُ بالغَيْداقِ لكثرة خيره، والمُقَوّمُ وضِرارٌ وأبو لَهَبٍ - واسمه عبدُ العُزَّى - وصفيّةُ وأمّ حكيمٍ البيضاءُ وعاتكةُ وأميمةُ وأروى وبَرَّةُ. وأمُّ عبدِ اللّهِ وأبي طالبٍ والزُّبيرُ وجميع النّساء إلّا صفيّةَ فاطمةُ بنتُ عَمْرِو بن عائذِ بنِ عِمرانَ بنِ مَخزومِ بنِ يَقَظَةَ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ بنِ غالبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عدنانَ. فولد عبدُ اللّهِ محمّدا رسول اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وعلى آله، سيّدَ وَلَدِ آدمَ وأمُّهُ آمنةُ بنتُ وَهْبِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ. فهو أشرف ولد آدم حسبا وأفضلهم نسبا من قِبَلِ أبيه وأمّه صلوات اللّه وسلامُه عليه دائما إلى يوم الدّينِ.

قد تقدّم ما كان من أخذ جُرْهُمٍ ولايةَ البيت من بني إسماعيلَ، طَمِعُوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم، وما كان من تَوَثُّبِ خُزاعَةَ على جُرْهُمٍ وانتزاعِهم ولاية البيتِ منهم. ثمّ ما كان من رجوع ذلك إلى قصيّ وبنيه واستمرارِ ذلك في أيديهم إلى أن

بعث اللّه رسولَه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فأقرّ تلك الوظائفَ على ما كانت عليه.

باب ذكر جماعةٍ كانوا مشهورين في زمن الجاهلية

ذكر حاتمٍ الطَّائِيِّ أحدِ أجوادِ الجاهليّة

وهو حاتمُ بنُ عبدِ اللّه بنِ سعدِ بنِ الحَشْرَجِ بنِ امْرِئِ القيسِ بنِ عَدِيِّ بنِ أَخْزَمَ بنِ أبي أَخْزَمَ، أبو سَفَّانَةَ الطّائِيُّ والدُ عِدِيِّ بنِ حاتمٍ الصّحابيِّ، كان جوادا مُمَدَّحا في الجاهليّةِ وكذلك كان ابنُه في الإسلامِ. وكانت لحاتمٍ مآثِرُ وأمورٌ عجيبةٌ وأخبارٌ مُسْتَغْرَبَةٌ في كرمه يطولُ ذكرها.

قال الحافظ أبو بكرٍ البَيْهَقِيُّ عن كُمَيْلِ بنِ زيادٍ النَّخَعِيّ قال : قال عليٌّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام : يا سبحان اللّهِ، ما أزهدَ كثيرا من النّاسِ في خيرٍ، عجبا لرجلٍ يجيئُه أخوه المسلمُ في حاجةٍ فلا يرى نفسَهُ للخيرِ أهلا، فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لكان ينبغي له أن يسارع في مكارمِ الأخلاق فإنّها تدلّ على سبيل النّجاح. فقام إليه رجل وقال : فِداكَ أبي وأمّي يا أميرَ المؤمنينَ، أسمعته من رسول اللّه ؟ قال : نعم، وما هو خيرٌ منه ؛ لمّا أُتِيَ بسبايا طَيِّئ وقعت جاريةٌ حمراء لَعْساءُ ذَلْفاءُ عَيْطاءُ شَمَّاءُ الأنفِ، معتدلة القامةِ والهامةِ، دَرْماءُ الكعبين خَدْلَةُ السّاقين لَفّاءُ الفخذين خَميصةُ الخصرين ضامِرَةُ الكَشْحين مصقولةُ المَتْنَيْن. قال : فلمّا رأيتها أُعْجِبتُ بها وقلتُ : لأَطْلُبَنَّ إلى رسول اللّه فيجعلُها في فَيْئِي. فلمّا تكلّمت أُنْسيتُ جمالها لِما رأيتُ من فصاحتها، فقالت : يا محمّد، إن رأيتَ أن تُخَلِّيَ عنّي ولا تُشْمِتْ بيَ أحياءَ العرب فإنّي ابنةُ سيّدِ قومي، وإنّ أبي كان يحمي الذِّمارَ ويفُكُّ العاني ويُشْبِعُ الجائعَ ويَكْسُو العارِيَ ويَقْري الضّيفَ ويُطْعِمُ الطّعامَ ويُفْشي السّلامَ ولم يَرُدَّ طالبَ حاجةٍ قطُّ، وأنا ابنة حاتمِ طَيِّئ. فقال النبيُّ صلّى اللّهُ عليه وعلى آله : يا جاريةُ، هذه صفةُ المؤمنين حقًّا، لو كان أبوك مؤمنا لترحّمتُ عليه.

خلُّوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارمَ الأخلاق واللّه تعالى يحبّ مكارم الأخلاقِ. فقام أبو بُرْدَةَ بنُ نِيارٍ فقال : يا رسول اللّه، واللّه يحبّ مكارمَ الأخلاقِ ؟ فقال رسول اللَّهِ صلّى اللّه عليه وعلى آله : والّذي نفسي بيده، لا يدخل الجنَّةَ أحدٌ إلّا بحسنِ الخُلُقِ.

قال أبو بكرٍ ابنُ أبي الدّنيا عَمَّن حدّثه : قيل لِنَوارَ امرأةِ حاتمٍ : حدّثينا عن حاتمٍ. قالت : كلُّ أمره كان عجبا ؛ أصابتنا سَنَةٌ حَصَّتْ (أذهبت وأهلكت) كلَّ شيءٍ، فاقشعرّت لها الأرض واغْبَرَّت لها السّماء وضَنَّتْ المراضع على أولادها وراحت الإبلُ حَدْباءَ (منحنية الظّهر) حَدَابِيرَ (جمع حدبار وحدبير وهي الناقة العجفاء الهزيلة) ما تَبِضُّ بقطرةٍ وحَلَقَ المال (أي هلك)، وإنّا لفي ليلة صِنَّبْرٍ (الريح الباردة في غيم) بعيدةِ ما بين الطّرفين، إذ تَضاغى الأصْبِيَةُ من الجوع ؛ عبدُ اللّهِ وعَدِيٌّ وسَفّانَةُ، فواللّهِ إن وجدنا شيئا نُعَلِّلُهم به. فقام إلى أحد الصَّبِيَّيْنِ فحمله وقمتُ إلى الصّبيّةِ فعَلَّلْتُها، فواللّه إن سكتا إلّا بعد هَدْأَةٍ من اللّيلِ، ثمّ عدنا إلى الصّبيّ الآخرِ فعللناه حتّى سكت وما كاد. ثمّ افْتَرَشْنا قَطِيفَةً لنا شاميَّةً ذاتَ خَمْلٍ فأضجعنا الصِّبْيانَ عليها ونمتُ أنا وهو في حُجْرَةٍ

والصّبيانُ بيننا، ثمّ أقبل عليّ يُعَلِّلُني لأنام، وعرفتُ ما يريدُ فتَناوَمْتُ، فقال : مالَكِ أَنِمْتِ ؟ فسكتُّ. فقال : ما أراها إلّا قد نامتْ. وما بي نومٌ. فلمّا ادْلَهَمَّ اللّيلُ وتَهَوَّرَت النّجومُ وهدأت الأصوات وسكنت الرِّجْلُ، إذا جانبُ البيتِ قد رُفِعَ، فقال : من هذا ؟ فولّى حتّى إذا قلتُ : قد أسحرنا أو كِدْنا. عاد فقال : من هذا ؟ قالت : جارتُك فُلانةُ يا أبا عَدِيٍّ، ما وجدتُ على أحدٍ مُعَوَّلًا غيرَكَ، أتيتك من عند أَصْبِيَةٍ يَتَعاوَوْنَ عُواءَ الذّئبِ من الجوعِ. قال : أعجليهم عليّ. قالت النَّوارُ : فوَثَبْتُ فقلتُ : ماذا صنعتَ ؟ واللّه لقد تَضاغى أصْبِيَتُك فما وجدتَ ما تُعَلِّلُهم به فكيف بهذه وبولدها ؟ فقال : اُسكتي، فواللّه لأُشْبِنَّكِ وإيّاهم، إن شاء اللّه. قالت : فأقبلتْ تحمل اثنين وتمشي جَنْبَتَيْها أربعةٌ كأنها نعامةٌ حولها رِئالُها (فرخ النعام)، فقام إلى فَرَسِه فوَجَأَ بحَرْبَتِهِ في لَبَّتِهِ ثمّ قَدَحَ زَنْدَه وأوْرى نارَه، ثمّ جاء بمُدْيَةٍ فكَشَطَ عن جِلْدِهِ ثمّ دفع المُدْيَةَ إلى المرأة، ثمّ قال : دُونَكِ. ثمّ قال : اِبْغِني صبيانكِ. فبَغَيْتُهم. ثمّ قال : سَوْءَةٌ، أتأكلون شيئا دون أخل الصِّرمِ (الجماعة المنعزلة) ؟ فجعل يُطَوِّفُ فيهم حتّى هبُّوا وأقبلوا عليه والْتَفَعَ في ثوبه، ثمّ اضْطَجَعَ ناحيةً ينظر إلينا، لا واللّه ما ذاقَ مِزْعَةً وإنّه

لأحوجهم إليه، فأصبحنا وما على الأرض منه إلّا عظمٌ أو حافرٌ.

وقال الدّارَقُطْني عمّن حدّثه : قالت امرأةُ حاتمٍ لحاتمٍ : يا أبا سَفَّانَةَ، أشتهي أن آكل أنا وأنتَ طعاما وحدنا ليس عليه أحد. فأمرها فحوّلت خيمتها من الجماعة على فَرْسَخٍ وأمر بالطّعام فهُيِّئَ، وهي مُرْخاةٌ سُتورُها عليه وعليها، فلمّا قارَبَ نُضْجُ الطّعامِ كشف عن رأسه ثمّ كشف السّتورَ وقدّم الطّعامَ ودعى النّاسَ فأكل وأكلوا، فقالت : ما أتممتَ لي ما قلتُ. فأجابها : فإني لا تُطاوِعُني نفسي ونفسي أكرَمُ عليَّ من أن يُثْنى عليَّ هذا، وقد سَبَق ليَ السّخاءُ.

وعن الوَضّاحِ بنِ مَعْبِدٍ الطّائيِّ قال : وَفَدَ حاتمٌ الطّائيُّ على النُّعمان بنِ المنذرِ فأكرَمَهُ وأدناه، ثمّ زَوَّدَهُ عند انصرافه حِمْليْنِ ذهبا ووَرِقًا غيرَ ما أعطاه من طرائف بلده. فرحل، فلمّا أشرف على أهله تَلَقَّته أعاريبُ طيِّءٍ فقالت : يا حاتمُ، أتيتَ من عند الملك بالغِنَى وأتينا مم عند أهالينا بالفقر. فقال حاتمٌ : هَلُمَّ فخذوا ما بين يديَّ. فتَوَزَّعوه، فوثبوا إلى ما بين يديه من حِباءِ (العطاء) النُّعمان فاقتسموه. فخرجت إلى حاتمٍ

طُرَيْفَةُ جاريتُه فقالت له : اتَّقِ اللّهَ وأبْقِ على نفسِكَ فما يدعُ هؤلاء دينارا ولا درهما ولا شاةً ولا بعيرًا.

وقال أبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ : قيل لحاتمٍ : هل في العرب أجْوَدُ منكَ ؟ فقال : كلُّ العربِ أجودُ منِّي. ثمّ أنشأ يحدّثُ قال : نزلتُ على غلام من العرب يتيمٍ ذات ليلةٍ وكانت له مائةٌ من الغنمِ، فذبح لي شاةً منها وأتاني بها، فلمّا قرَّبَ إليَّ دماغها قلتُ : ما أطيبَ هذا الدّماغَ. قال : فذهب فلم يزل يأتيني منه حتّى قلتُ : قد اكتفيتُ. فلمّا أصبحتُ، إذا هو قد ذبح الكثير منها. فقيل له : فما صنعتَ به ؟ فقال : ومتى أبْلُغُ شكرَهُ، ولو صنعتُ به كلَّ شيءٍ ؟ قال : على كلِّ حالٍ ؟ فقال : أعطيتُه مائةَ ناقةٍ من خيارِ إبلي.

وقال محمّدُ بنُ جعفرٍ الخَرائِطيُّ في كتاب [مكارم الأخلاق] عمّن حدّثَهُ : كانت غَنِيَّةُ بنتُ عفيفِ بنِ عَمْرِو بنِ امرئِ القيسِ، أمّ حاتمِ طَيِّئٍ، لا تمسك شيئا سخاءً وجودا. وكان إخوتها يمنعونها فتأبى، وكانت امرأةً موسِرَةً. فحبسوها في بيتٍ سنةً يُطْعِمونها قوتَها لعلّها تَكُفُّ عمّا تصنع، ثمّ أخرجوها بعد سنةٍ وقد ظنّوا أنّها قد تركت ذلك الخُلُقَ، فدفعوا إليها صِرْمَةً من مالها وقالوا : استمتعي بها. فأتتها امرأةٌ من

هَوازِنَ وكانت تغشاها فسألتها، فقالت : دُونَكِ هذه الصِّرْمَةَ فقد واللّه مسّني من الجوع ما آليتُ أن لا أمنع سائلا شيئا.

وقال الهيثم بنُ عديٍّ عن مِلْحانَ بنِ عركى بنِ عديٍّ بنِ حاتمٍ عن أبيه عن جدّه قال : شهدتُ حاتمًا يكيدُ بنفسه فقال لي : أي بنيَّ، إنّي أعهدُ من نفسي ثلاثَ خصالٍ واللّه ما خاتَلْتُ جارةً لي لريبَةٍ قطُّ، ولا اؤْتُمِنْتُ على أمانةٍ إلّا أدَّيْتُها، ولا أُتِيَ أحدٌ مِن قِبَلي بسوءٍ.

وقال أبو بكرٍ الخَرائِطِيُّ عن المُحَرَّرِ بنِ أبي هُرَيْرَةَ : مَرَّ نَفَرٌ من عبدِ القيسِ بقبرِ حاتمِ طَيِّئٍ، فنزلوا قريبا منه. فقامَ إليه بعضُهم يقال له : أبو الخَيْبَرِيِّ، فجعل يَرْكُضُ قبرَه برجله ويقول : يا أبا الجَعْراءِ اِقْرِنا. فقال له بعض أصحابِه : ما تُخاطبُ مِن رِمَّةٍ وقد بَلِيَتْ. وأجَنَّهم اللّيلُ فناموا. فقام صاحبُ القَوْلِ فَزِعًا يقول : يا قومُ عليكم بمَطِيِّكم فإنّ حاتما أتاني في النّوم. وإذا ناقةُ صاحب القول تَكُوسُ (عُرْقِبَتْ إحدى قوائمها فمشت على ثلاث) عَقِيرًا. فنحروها وقاموا يَشْتَوونَ ويأكلون، وقالوا : واللّه لقد أضافنا حاتمٌ حيًّ وميّتا. قال : وأصبحَ القومُ وأردفوا صاحبهم {صاحب الناقة التي ذبحوها} وساروا. فإذا رجل يُنَوّهُ بهم راكبا جملا ويقود آخرَ، فقال :

أَيُّكم أبو الخَيْبَرِيِّ ؟ قال : أنا. قال : إنّ حاتما أتاني في النّوم فأخبرني أنّه قَرَّى أصحابَك ناقَتَك، وأمرني أن أحملك وهذا بعير فخُذْهُ. فدفعه إليه.

ذكر شيء من أخبارِ عبدِ اللّهِ بنِ جُدْعانَ

هو عبدُ اللَّهِ بنُ جُدْعانَ بنِ عَمْرِو بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرَّةَ، سيّدُ بني تَيْمٍ، وهو ابنُ عمّ والدِ أبي بكرٍ الصّدّيقِ رضي اللَّهُ عنه وأرضاه. وكان مِن الكُرَمَاءِ الأجوادِ في الجاهليّةِ المُطْعِمِين للمُسْنِتِينَ، وكان في بَدْءِ أمره فقيرا مُمْلِقًا، وكان شرّيرا يُكْثِرُ من الجنايات حتّى أبغضه قومُه وعشيرتُه وأهلُه وقبيلتُه، وأبغضوه حتّى أبوه. فخرج ذات يوم في شِعابِ مكّةَ حائرا بائِرا، فرأى شَقًّا في جبل فظَنَّ أن يكونَ به شيء يُؤْذي، فقصده لعلّه يموت فيستريح مما هو فيه. فلمّا

اقترب منه إذا ثعبانٌ يخرج إليه ويَثِبُ عليه فجعل يَحيدُ عنه ويَثِبُ فلا يُغْني شيئًا. فلمّا دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبورٌ لرجال من ملوك جُرْهُمٍ ومنهم الحارثُ بنُ مُضاضٍ الذي طالت غيبتُه فلا يُدْرى أين ذهب ووجد عند رؤوسهم لَوْحا من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومُدَدُ وِلايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة شيءٌ كثيرٌ. فأخذ منه حاجته ثمّ خرج وعَلَّمَ باب الغار ثمّ انصرف إلى قومه. فأعطاهم حتّى أحبوه وسادهم وجعل يُطْعِمُ النّاس وكلّما قَلَّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغارِ فأخذ حاجته ثمّ رجع. فمِمَّن ذكر هذا عبدُ الملكِ بنُ هشامٍ في كتاب [التّيجان]، وذكره أحمد بنُ عمّارٍ في كتاب [رِيّ العاطش وأُنْسِ الواحش].

وكانت له جَفْنَةٌ (بئر صغيرة) يأكل منها الرّاكب على بعيره، ووقع فيها صغير فغرق. وذكر ابنُ قُتَيْبَةَ وغيره أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : لقد كنتُ أستظلّ بظلِّ جَفْنَةِ عبد اللّهِ بنِ جُدْعانَ صَكَّةَ عُمَيٍّ ؛ أي وقتَ الظّهيرة. وفي حديث مقتل أبي جهلٍ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال لأصحابه : تَطَلَّبوه بين القتلى، وتعرّفوه

بِشَجَّةٍ في ركبته فإنّي تزاحمت أنا وهو على مأدُبَةٍ لابنِ جُدْعانَ، فدفعته فسقط على ركبته فانْهَشَمتْ فأثرُها باقٍ في ركبته. فوجدوه كذلك. وذكروا أنّه كان يُطعم التّمر والسَّويقَ ويسقي اللبنَ، حتّى سمع قول أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ. فأرسل ابنُ جُدْعانَ إلى الشام ألْفَيْ بعيرٍ تحمل البُرَّ والشَّهْدَ والسَّمْنَ، وجعل مناديا ينادي كلَّ ليلةٍ على ظهر الكعبةِ أن هَلُمُّوا إلى جَفْنَةِ ابنِ جُدعانَ.

ومع هذا كلِّه فقد ثبت في الصّحيح لمسلمٍ أنّ عائشةَ رضي اللّه عنها قالت : يا رسول اللّه، إنّ ابنَ جُدْعانَ كان يُطْعِمُ الطّعام ويَقْري الضّيفَ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : لا، إنّه لم يقل يوما ؛ ربِّ اغفر لي خطيئتي يومَ الدّينِ.

ذكر امرِئِ القيسِ بنِ حُجْرٍ الكِنْدِيِّ، صاحب إحدى المعلّقات

قال الإمام أحمدُ رحمه اللّه عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وعلى آله : امْرُؤُ القيسِ صاحبُ لواء الشعراء إلى النار.

ورُوِيَ أنّ جماعةً عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إذ أقبل وفد من اليمن فقالوا : يا رسول اللّه، لقد أحيانا اللّه بِبَيْتَيْنِ من شعر امْرِئِ القيسِ. قال : وكيف ذلك ؟ قالوا : أقبلنا نريدك، حتّى إذا كنّا ببعض الطّريق أخطأنا الطّريقَ، فمكثنا ثلاثا لا نقدر على الماء، فتفرقنا إلى أصول طَلْحٍ وسَمُرٍ ليموتَ كلّ رجل منا في ظلِّ شجرةٍ. فبينا نحن بآخر رَمَقٍ إذا راكب يُوضِعُ (يُسْرِع) على بعير، فلمّا رآه بعضنا قال بيتين من شعر امرئ القيس والراكب يسمع. فقال الراكب : ومن

يقول هذا الشِّعْرَ ؟ - وقد رأى ما بنا من الجَهْدِ - قلنا : امْرُؤُ القيسِ بنُ حُجْرٍ. قال : واللّه ما كذب، هذا ضارِجٌ (اسم موضع) عندكم. فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحوٌ من خمسين ذراعا، فحَبَوْنا إليه على الرُّكَبِ، فإذا هو كما قال امرُؤُ القيسِ، عليه العَرْمَضُ (الطُّحلب) يَفِيءُ عليه الظِّلُّ. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : ذاك رجل مذكور في الدنيا مَنْسِيٌّ في الآخرة، شريف في الدنيا خامِلٌ في الآخرة، بيده لواءُ الشعراء يقودهم إلى النّار.

وذكر الكَلْبِيُّ أنّ امْرأَ القيسِ أقبل براياته يريد قتال بني أسدٍ حين قتلوا أباه، فمَرَّ بتَبالَةَ (موضع باليمن) وبها ذو الخَلَصَةِ وهو صنم، وكانت العرب تَسْتَقْسِمُ عنده، فاستقسم، فخرج القِدْحُ النّاهي ثمّ الثّانيةَ ثمّ الثّالثةَ كذلك. فكسر القِداحَ وضرب بها وجه ذي الخَلَصَةِ وقال : عَضَضْتَ بأَيْرِ (الذَّكَر) أبيك، لو كان أبوك المقتول لما عَوَّقْتَنِي. ثمّ أغار على بني أسدٍ فقتلهم قتلا ذريعا. قال الكَلْبِيُّ : فَلَمْ يُسْتَقْسَمَ عند ذي الخَلَصَةِ حتّى جاء الإسلامُ.

وذكر بعضهم أنّه امتدح قيصرَ ملك الرّومِ يستنجده في بعض الحروب و يَسْتَرْفِدُه، فلم يجد ما يُؤَمِّلُه عنده فهَجاهُ بعد

ذلك. فيقال : إنّه سقاه سُمًّا فقتله، فألجأه إلى جَنْبِ قبر امرأة عند جبلٍ يقال له عَسيبٌ.

وقد ذكروا أنّ المُعَلَّقاتِ السّبعِ كانت معلّقةً بالكعبة، وذلك أنّ العربَ كانوا إذا عَمِلَ أحدهم قصيدة عرضها على قريشٍ، فإن أجازوها علّقوها على الكعبة تعظيما لشأنها. فاجتمع من ذلك هذه المعلّقاتُ السَّبْعُ، فالأولى لامْرِئِ القيسِ بنِ حُجْرٍ الكِنْديّ كما تقدّم. والثّانيةُ للنّابغةِ الذُّبْيانيِّ واسمُه زيادُ بنُ معاويَةَ. والثّالثةُ لزُهَيرِ بنِ أبي سُلْمى رَبيعَةَ بنِ رياحٍ المُزَنِيِّ. والرّابعةُ لطَرَفَةَ بنِ العبدِ بنِ سفيانَ بنِ سعدِ بنِ مالكِ بنِ ضُبَيْعَةَ بنِ قيسِ ابنِ ثَعْلَبَةَ بنِ عُكابَةَ بنِ صعبِ بنِ عليِّ بنِ بكرِ بنِ وائلٍ. والخامسةُ لعَنْتَرَةَ بنِ شَدَّادِ بنِ معاويةَ بنِ قُرادِ بنِ مَخْزومِ بنِ رَبيعَةَ بنِ مالكِ بنِ غالبِ بنِ قُطَيْعَةَ بنِ عَبْسٍ العَبْسِيِّ. والسّادسةُ لعَلْقَمَةَ بنِ عَبْدَةَ بنِ النُّعمانِ بنِ قيسٍ، أحدِ بني تميمٍ. والسّابعةُ - ومنهم مَن لا يُثبتُها في المُعَلّقاتِ وهو قول الأَصَمَعِيِّ وغيره - وهي للَبيدِ بنِ ربيعةَ بنِ مالكِ بنِ جعفرِ بنِ كِلابِ بنِ ربيعَةَ بنِ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ بنِ معاويةَ بنِ بكرِ بنِ هَوازِنَ بنِ منصورِ بنِ عِكْرِمَةَ بنِ خَصَفَةَ بنِ قيسِ بنِ عَيْلانَ بنِ مُضَرَ.

ذكر شيء من أخبارِ أُمَيّةَ ابنِ أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِيّ، كان من شعراء الجاهليّةِ وقد أدرك زمن الإسلامِ

قال الحافظ ابنُ عساكرَ رحمه اللّه : هو أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ عبدِ اللّه بنِ أبي ربيعَةَ ابنِ عَوْفِ بنِ عُقْدَةَ بنِ غِيَرَةَ بنِ عَوْفِ بنِ ثَقيفِ بنِ مُنَبِّهِ بنِ بكرِ بنِ هَوازِنَ، أبو عثمانَ، ويقال : أبو الحَكَمِ الثَّقَفِيُّ. شاعر جاهليٌّ قَدِمَ دمشقَ قبل الإسلامِ. وقيل إنّه كان مستقيما، وإنّه كان في أوّلِ أمره على الإيمان ثمّ زاغَ عنه.

قال الزُّبيْرُ بنُ بكّارٍ : فولدت رُقَيَّةُ بنتُ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ مَنافٍ أُمَيَّةَ الشّاعرَ ابنَ أبي الصَّلْتِ، واسمُ أبي الصَّلْتِ ربيعَةُ بنُ وَهْبِ بنِ عِلاجِ بنِ أبي سَلَمَةَ بنِ ثَقيفٍ. وقال غيرُه : كان أبوه من الشّعراء المشهورين بالطّائف، وكان أُمَيَّةُ أشعرَهم.

قال الطَّبَرانِيُّ عن أبي سفيانَ بنِ حربٍ أنّ أُمَيَّةَ بنَ أبي الصَّلْتِ كان بغَزَّةَ أو بإِيلِياءَ، فلمّا قَفَلْنا قال لي أُمَيَّةُ : يا أبا سفيانَ، هل لك أن تتقدّم على الرُّفْقَةِ فنتحدّثَ ؟ قلتُ : نعم. فقال لي : يا أبا سفيانَ، إِيهٍ عن عُتْبَةَ بنِ ربيعَةَ، كريمُ الطَّرَفَيْنِ ويجتنب المحارمَ والمظالمَ ؟ قلتُ : نعم. قال : وشريفٌ مُسِنٌّ ؟ قلتُ : وشريف مسنٌّ. قال : السِّنُّ والشّرفُ أزْرَيا به. فقلتُ له : كذبتَ، ما ازداد سِنًّا إلّا ازداد شَرَفًا. قال : يا أبا سفيانَ، إنّها كلمةٌ ما سمعتُ أحدا يقولها لي منذ تَبَصَّرْتُ، فلا تَعْجَلْ عليَّ حتّى أُخْبرِكَ. قلتُ : هاتِ. قال : إنّي كنتُ أجد في كُتُبي نبيًّا يُبْعَثُ من حَرَّتنا هذه، فكنتُ أظنُّ بل لا أشكّ أنّي أنا هو، فلمّا دارستُ أهلَ العلمِ إذا هو من عبدِ مَناف. فنظرتُ في بني عبدِ مَنافٍ فلم أجد أحدا يصلُحُ لهذا الأمر غيرَ عُتْبَةَ بنِ ربيعَةَ، فلمّا أخبرتني بسِنِّه عرفتُ أنّه ليس به، حين جاوز الأربعينَ ولم يُوحَ إليه. قال أبو سفيانَ : فضربَ الدّهرُ مَن ضَرَبَه فأُوحِيَ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، وخرجت في ركبٍ من قريشٍ أريد اليمن في تجارةٍ. فمررتُ بأُمَيَّةَ فقلتُ له كالمُسْتَهزِئِ به : يا أُمَيَّةُ، قد خرج النبيُّ الذي كنتَ تَنْعَتُه. قال : أما إنّه حقٌّ فاتّبعه. قلتُ : ما يمنعك من اتّباعِه ؟ قال : ما يمنعني إلّا الاسْتِحْيَاءُ من نُسَيَّاتِ ثَقيفٍ، إنّي

كنتُ أُحَدِّثُهنَّ أنّي هو، ثمّ يَريْنَنِي تابعا لغلام من بني عبدِ منافٍ. ثمّ قال أُمَيَّةُ : وكأنّي بك يا أبا سفيانَ إن خالفته قد رُبِطْتَ كما يُرْبَطُ الجَدْيُ حتّى يُؤْتى بك إليه فيَحْكُمَ فيك بما يريد.

قال عبدَ الرّزّاقِ عن الكَلْبِيِّ : بَيْنا أُمَيَّةُ راقدٌ ومعه ابنتان له، إذ فَزِعت إحداهما فصاحت عليه، فقال لها : ما شأنُكِ ؟ قالت : رأيتُ نَسْرينِ كَشَطَا سقف البيت، فنزل أحدهما إليك فَشَقَّ بطنك، والآخرُ واقف على ظهر البيت، فناداه فقال : أَوَعَى ؟ قال : وَعَى. قال : أَ زَكَى ؟ قال : لا. فقال : ذاك خيرٌ أُريدَ بأبيكما فلم يقبله.

وقد رُوِيَ من وجه آخرَ بسياق آخر عن سعيد بنِ المُسَيَّبِ قال : قَدِمَتِ الفارِعَةُ أختُ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله بعد فتح مكّةَ، وكانت ذا لُبٍّ وعقلٍ وجمالٍ، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مُعْجَبًا بها، فقال لها ذات يومٍ : يا فارعةُ، هل تحفظين من شعر أخيك شيئا ؟ فقالت : نعم، وأعجبُ منه ما رأيتُ. قالت : كان أخي في سفر فلمّا انصرف بدأ بي، فدخل عليّ فرَقَدَ على السّرير وأنا أَخَلُّقُ أديما في يدي، إذ أقبل طائران أبيضان أو

كالطّيرين أبيضين. فوقع على الكُوَّةِ أحدهما ودخل الآخر فوقع عليه، فَشَقَّ الواقعُ عليه ما بين قَصِّه (عظم الصدر المغروز فيه أطراف الأضلاع من الجانبين) إلى عانته، ثمّ أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفّه ثمّ شمّه. فقال له الطائر الآخر : أَ وَعَى ؟ قال : وَعَى. قال : أَ زَكَى ؟ قال : أَبَى. ثمّ ردّ القلبَ إلى مكانه، فالْتَأَمَ الجُرْحُ أسرعَ من طرفةِ عينٍ ثمّ ذهبا. فلمّا رأيت ذلك دَنَوْتُ منه فحرّكته، فقلتُ : هل تجد شيئا ؟ قال : لا، إلّا تَوْهينًا في جسدي - وقد كنتُ ارتعبتُ ممّا رأيتُ - فقال : مالي أراكِ مُرْتاعَةً ؟ فأخْبَرْتُه بالخبر فقال : خَيرٌ أُرِيدَ بي ثمّ صُرِفَ عنّي. قالت : ثمّ انصرف إلى رَحْلِه فلم يلبث إلا يسيرا حتّى طُعِنَ في جنازته. فأتاني الخبرُ فانصرفتُ إليه فوجدته منعوشا قد سُجِّيَ عليه. فدنوتُ منه فَشَهِقَ شَهَقاتٍ قال بينهم كلاما، ثمّ مات. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : يا فارعةُ فإنّ مَثَلَ أخيك كمثل الذي آتاه اللّه آياته فانسلخ منها.

وقال الإمامُ أحمد رحمه اللّه عن عَمْرو بنِ الشَّريدِ قال : قال الشّريدُ : كنتُ رِدْفًا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فقال لي : أَ معك من شعرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيءٌ ؟ قلتُ :

نعم. قال : فأنشدني. فأنشدته بيتا، فلم يزل يقول لي كلّما أنشدته بيتا : إِيهٍ. حتّى أنشدتُه مائةَ بيتٍ. قال : ثمّ سكت النّبيّ وسكتُّ. وفي بعض الروايات : فقال رسول اللّه : إن كاد يُسْلِمُ. أو : عند اللّه عِلْمُ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ.

بَحَيرَى الرّاهِب

وهو الذي تَوَسَّمَ في رسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله النّبُوَّةَ وهو مع عمّه أبي طالبٍ حين قَدِمَ الشّامَ في تجّار من أهل مكّةَ، وعمره إذ ذاك اثنتا عَشْرَةَ سنةً. فرأى الغمامةَ تُظِلُّه من بينهم، فصنع لهم طعاما ضيافةً واستدعاهم، كما سيأتي بيان ذلك في السّيرة إن شاء الله. وقد روى التِّرْمِذِيُّ في ذلك حديثا بسطنا الكلامَ عليه هنالك، وقد أورد له الحافظ ابنُ عساكرَ شواهد وسائغات في ترجمة بَحيرى ولم يورد ما رواه التّرمذيّ، وهذا عجب. وذكر ابنُ عساكرَ أنّ بَحيرى كان يسكن قريةً يقال لها : الكفرُ، بينها وبين بُصْرى ستّة أميالٍ وهي التي

يقال لها : دِير بَحيرى. قال : ويقال : إنّه كان يسكن قريةً يقال لها : منفعةُ، بالبلْقاءِ وراء زَيْرا. والله أعلم.

ذكرُ قُسّ بنِ ساعِدَةَ الإياديّ

قال الحافظ أبو بكرٍ محمّدُ بنُ جعفرِ بنِ سَهْلٍ الخَرائطيُّ في كتاب [هواتف الجانّ] عن عُبادَةَ بنِ الصّامِتِ قال : لمّا قَدِمَ وفد إيادٍ على النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : يا مَعْشَرَ وفدِ إيادٍ، ما فعل قُسُّ بنُ ساعِدَةَ الإياديُّ ؟ قالوا : هَلَكَ يا رسول الله. قال : لقد شَهِدْتُه يوما بسوق عُكاظٍ على جملٍ أحمرَ يتكلّم بكلام مُعْجِبٍ مونِقٍ، لا أجِدُني أحفظه. فقام إليه أعرابيٌّ من أقاصي القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول اللّه. فسُرَّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله بذلك. قال : فكان بسوقِ عُكاظٍ على جملٍ أحمرَ وهو يقول : ما مَعْشَرَ النّاسِ اجتمعوا، فكلُّ من فات فات وكلُّ شيءٍ آتٍ آتٍ، ليلٌ داجٍ (عَمَّتْ ظُلْمتُهُ) وسماءٌ ذاتُ أبراج وبحرٌ عَجاجٌ نجومٌ تَزْهَرُ وجبالٌ مَرْسِيَّةٌ

وأنهارٌ مَجْرِيَّةٌ، إنّ في السّماء لَخَبَرًا وإنّ في الأرض لَعِبَرًا، ما لي أرى النّاسَ يذهبون فلا يرجعون، أَ رَضُوا بالإقامة فأقاموا أم تُرِكوا فناموا ؟ أقسَمَ قُسٌّ بالله قَسَمًا لا ريب فيه، إنّ للّه دِينًا أرضى من دينكم هذا.

وأخبرنا الشّيخُ المُسْنِدُ الرُّحْلَةُ أحمدُ بنُ أبي طالبٍ الحَجّارُ عن الحَسَنِ بنِ أبي الحَسَنِ البَصْرِيِّ قال : كان الجارودُ بنُ المُعَلَّى بنِ حَنَشِ بنِ مُعَلَّى العَبْدِيُّ نصرانيّا حسنَ المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها، عالما بسِيَرِ الفُرْسِ وأقاويلها بصيرا بالفلسفة والطّبّ ظاهرَ الدَّهاءِ والأدبِ كاملَ الجمال ذا ثروةٍ ومالٍ، وإنّه قَدِمَ على النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله وافدًا في رجالٍ من عبد القيس ذوي آراءٍ وأسنانٍ وفصاحةٍ وبيانٍ وحججٍ وبرهانٍ. فلمّا قَدِمَ على النّبيّ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول شعرًا. فأدناه النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله وقرّب مجلسه، وقال له : يا جارودُ، لقد تأخّر الموعودُ بك وبقومك. فقال الجارودُ : فِداكَ أبي وأمّي، أمّا مَن تأخّرَ عنك فقد فاته حظُّهُ وتلك أعظمُ حُوبَةٍ وأغلظُ عقوبةٍ، وما كنتُ فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتّبع سِواك، وإنّي الآن على دينٍ قد علمت به قد جئتُك وها أنا تاركه لدينك. أفذلك ممّا

يُمَحِّصُ الذنوب والمآثم والحوبَ ؟ ويُرضي الرّبّ عن المَرْبوبِ ؟ فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : أنا ضامن لك ذلك، وأخلِصِ الآن لله بالوحدانيّة وَدَعْ عنك دين النّصرانيّة. فقال الجارودُ : فِداكَ أبي وأمّي، مُدَّ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلّا اللّهُ وحده لا شريك له وأشهد أنّك محمّدٌ عبده ورسوله. فأسلمَ وأسلمَ معه أناسٌ من قومه، فسُرَّ النبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله بإسلامهم وأظهر من إكرامهم ما سُرُّوا به وابتهجوا به. ثمّ أقبل عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فقال : أفيكم من يعرف قُسَّ بنَ ساعِدَةَ الإيادِيَّ ؟ فقال الجارودُ : فِداكَ أبي وأمّي، كلُّنا نعرفه وإنّي من بينهم لعالِمٌ بخبره واقفٌ على أمره. كان قُسٌّ يا رسول اللّه سِبْطًا من أسباطِ العرب، عُمِّرَ ستَّمائةِ سنةً تَقَفَّرَ منها خمسةَ أعمارٍ في البراري والقِفارِ (جمع قَفْر وهو الخلاءُ من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ)، يَضِجُّ بالتسبيح على مثالِ المسيح، لا يُقِرُّه قرارٌ ولا تَكُنُّه دارٌ ولا يستمتع به جارٌ. كان يلبس الأمساحَ ويفوقُ السُّيَّاحَ ولا يَفْتُرُ من رهبانيّته. يَتَحَسّى في سياحته بَيْضَ النّعام ويأنَسُ بالهَوامِّ ويستمتع بالظّلامِ. يُبْصِرُ فيَعْتبِرُ ويُفَكِّرُ فيَزْدَجِر. فصار لذلك واحدا تُضْرَبُ بحكمته الأمثالُ وتُكْشَفُ به الأهوالُ. أدرك رأس الحواريّين سمعانَ، وهو أوّل

من تَأَلَّه من العرب ووحّد وأقرّ وتعبّد، وأيقن بالبعث والحساب وحَذِرَ سوء المآبِ وأمرَ بالعمل قبل الفوت ووعظ بالموت وسلّم بالقضا على السُّخْطِ والرّضا. وزار القبور وذَكَرَ النُّشورَ ونَدَبَ بالأشعار وفكّر في الأقدار وأنْبَأَ عن السّماء والنَّماء. وذكر النّجومَ وكشف الماء ووصف البحار وعرف الآثار وخطب راكبا ووعظ دائبا وحذّر من الكَرْبَ ومن شدّة الغضب، ورَسَّلَ الرّسائل وذكرَ كلَّ هائل، وأرغم في خُطَبِهِ وبيّن في كتبه وخوّف الدّهر وحذّر الأَزْرَ (القوّة) وعظّم الأمر وجَنَّبَ الكفر وشَوَّقَ إلى الحَنيفِيّةِ ودعا إلى اللّاهوتيّةِ وهو القائل في يوم عُكاظٍ : شرقٌ وغربٌ، ويَتْمٌ وحِزْبٌ، وسِلْمٌ وحربٌ، ويابسٌ ورَطْبٌ، وأُجاجٌ وعَذْبٌ، وشُموسٌ وأقمارٌ، ورياح وأمطارٌ، وليلٌ ونهارٌ، وإناثٌ وذكورٌ، وأبرارٌ وفُجورٌ، وحَبٌّ ونباتٌ، وآباءٌ وأُمّهاتٌ، وجمعٌ وأشتاتٌ، وآياتٌ في إثرها آياتٌ، ونورٌ وظلامٌ، ويُسْرٌ وإعدامٌ، وربٌّ وأصنامٌ، لقد ضلَّ الأنامُ، نُشوءُ مولود، ووَأْدُ مفقود، وتربيةُ محصودٍ، وفقيرٌ وغنيٌّ، ومُحْسِنٌ ومسيءٌ، تبّا لأرباب الغفلة، لَيُصْلِحَنَّ العاملُ عمله، ولَيَفْقِدنَّ الآمل أمله. كلّا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذّكر والأنثى، ربُّ الآخرة والأولى. أمّا بعدُ، فيا معشر إياد، أين ثمودُ وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟

وأين العليلُ والعُوّاد ؟ كُلٌّ له مَعاد، يُقْسِمُ قُسٌّ بربّ العباد، وساطِحِ المِهاد، لَتُحْشَرُنَّ على الانفراد، في يوم التَّناد، إذا نُفِخَ في الصّور ونُقِرَ في النّاقور، وأشرقت الأرضُ، ووعظ الواعظ، فانْتُبِذَ القانط، وأبصر اللاحظ، فويلٌ لمن صَدَفَ عن الحقّ الأشهر، والنّور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشَهِدَ النّذيرُ، وبَعُدَ النّصير، وظهر التّقصير، ففريق في الجنّة وفريق في السعير. ثمّ التفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إلى بعض أصحابه فقال : أيكم يروي شِعْرَه لنا ؟ فقال أبو بكرٍ الصّدّيق رضي اللّه عنه وأرضاه : فِداكَ أبي وأمّي، أنا شاهدٌ له في ذلك اليوم. فأنشده أبو بكر من شعره. فقام إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله شيخٌ من عبدِ القيسِ عظيمُ الهامَةِ طويلُ القامةِ، بعيد ما بين المَنْكِبَيْنِ فقال : فِداكَ أبي وأمّي، وأنا رأيتُ من قُسٍّ عَجَبًا. فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : ما الذي رأيتَ يا أخا بني عبدِ القيسِ ؟ فقال : خرجتُ في شَبِيبَتِي أَرْبَعُ بعيرا لي (أتركه يرد الماء)، ففرَّ منّي فذهبتُ أقفو أثره في تَنائفَ (جمع تنوفة وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس) قفافٍ (قفت الأرض أي يبس بقلها) ذات ضَغابيسَ (جمع ضغبوس وهو أغصان عشب الثمام والشوك التي

تؤكل)، وعَرَصاتِ جَثْجاثٍ (نبات له زهرة صفراء طيبة الريح)، بين صدورِ جُذْعانَ (جذعان الجبال هي صغارها)، وغَميرِ حَوْذانٍ (الغمير : النبت ينبت في أصل النبت - حوذان : نبت)، ومَهْمَهٍ (المفازة البعيدة) ظَلْمان، ورَصيعِ أيْهُقان (عشب يطول وله وردة حمراء وورقه عريض، ويؤكل). فبَيْنا أنا في تلك الفَلَواتِ أجولُ بسَبْسَبِها (المفازة أو الأرض المستوية البعيدة)، وأرْنُقُ (أُديمُ النّظر) فَدْفَدَها (الفَلاةُ، والمكان الصّلب الغليظ والمرتفع)، إذا أنا بهضبةٍ في نَشَزاتِها (المكان المرتفع) أراكٌ كَباثٌ مُخْضَوْضِلَةٌ (الكباث : النّضيج من ثمر الأراك - المخضوضلة : ندى وابتلّ)، وأغصانُها مَتَهَدِّلَةٌ كأنّ بَريرَها (الأوّل من ثمار الأراك) حَبُّ الفُلْفُلِ وبَواسِقُ أُقْحُوانٍ (نبت زهره أصفر أو أبيض). وإذا بعين خَرَّارةٍ وروضةٍ مُدْهامَّةٍ (خضراء تضرب إلى السواد)، وشجرةٍ عارِمةٍ، وإذا أنا بقُسّ بنِ ساعِدَةَ في أصل تلك الشّجرة وبيده قضيبٌ، فدنوتُ منه وقلتُ له : أَنْعِمْ صباحا. فقال : وأنت فنعم صباحُكَ. وقد وَرَدَتِ العينَ سِباعٌ كثيرةٌ فكان كلّما ذهب سَبُعٌ منها يشرب من العينِ قبل صاحبه ضربه قُسٌّ بالقضيب الذي بيده، وقال : اصبر حتّى يشربَ الذي قبلك. فذُعِرْتُ من ذلك ذُعْرا شديدا، ونظر إليّ فقال : لا تَخَفْ. وإذا بقَبْرَيْن بينهما مسجد فقلتُ :

ما هذان القبران ؟ قال : قَبْرَا أخوين كانا يعبدان اللّه عزّ وجلّ بهذا الموضع، فأنا مقيم بين قَبْرَيْهما أعبدُ اللّه حتّى ألحق بهما. فقلت له : أفلا تلحقُ بقومك فتكون معهم في خيرهم وتُبايِنَهم على شرّهم ؟ فقال لي : ثَكِلَتْكَ أمّك، أَوَ ما علمتَ أنّ ولد إسماعيلَ تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضدادَ وعظّموا الأندادَ. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : رحم اللّه قُسًّا، أما إنّه سيُبْعَثُ يوم القيامة أمّةً واحدةً.

زيد بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ رضي اللّه عنه

هو زيدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ رياح بنِ عبدِ اللّهِ بنِ قُرْطِ بنِ رَزاح بنِ عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ القُرَشِيُّ العَدَوِيُّ. وكان الخَطّابُ - والدُ عُمرَ بنِ الخطّابِ - عَمَّهُ وأخاهُ لأُمّه ؛ وذلك لأنّ عَمْرَو بنَ نُفَيْلٍ كان قد خَلَفَ على امرأةِ أبيه بعدَ أبيه، وكان لها من نُفَيْلٍ أخوه الخَطّابُ. قاله الزُّبير ابنُ بكّارٍ ومحمّد بنُ إسحاقَ. وكان زيدُ بنُ عَمْرٍو قد ترك عبادة

الأوثان وفارق دينهم، وكان لا يأكل إلّا ما ذُبِحَ على اسم اللّه وحده. وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضي اللّه عنهما قالت : لقد رأيتُ زيدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ مُسْنِدًا ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ! والذي نَفْسُ زيدٍ بيده، ما أصبح أحدٌ منكم على دين إبراهيم غيري. ثمّ يقول : اللّهمّ إنّي لو أعلم أحبَّ الوجوه إليك عَبَدْتُكَ به، ولكنّي لا أعلم. ثمّ يسجد على راحلته. وكذا رواه أبو أسامةَ عن هشام به وزاد : وكان يصلي إلى الكعبة ويقول : إِلَهِي إلهُ إبراهيمَ وديني دينُ إبراهيمَ. وكان يُحْيِي المَوْؤُودَةَ ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها، ادفعها إليَّ أَكْفُلُها. فإذا ترعرعت قال : إن شئت فخذها وإن شئت فادفعها.

وعن محمّد بنِ إسحاقَ : وقد كان نَفَرٌ من قريشٍ ؛ زيدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ وورَقَةُ بنُ نوفل بنِ أسدِ بنِ عبد العُزَّى وعثمانُ بنُ الحُوَيْرِثِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى وعُبَيْدُ اللّهِ بنُ جحشِ بنِ رِئابِ بنِ يَعْمَرَ بنِ صَبِرَةَ بنِ مُرَّةَ بنِ كبيرِ بنِ غَنْمِ بنِ دودانَ بنِ أسدِ بنِ خُزَيْمَةَ، وأمُّه أميمةُ بنتُ عبدِ المطّلبِ وأختُه زينبُ بنتُ جحشٍ - التي تزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله بعد مولاه زيد بنِ حارِثَةَ - حضروا قريشًا عند وَثَنٍ لهم

كانوا يذبحون عنده لعيدٍ من أعيادهم. فلمّا اجتمعوا خلا بعض أولئك النّفرِ إلى بعض وقالوا : تَصَادقوا ولْيَكْتُم بعضكم على بعض. فقال قائلهم : تَعْلَمُنَّ واللّه ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين إبراهيمَ وخالفوه، ما وَثَنٌ يُعْبَدُ لا يَضُرُّ ولا ينفعُ ! فابتغوا لأنفسكم. فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهلَ كتابٍ من اليهود والنّصارى والمِلَلِ كلِّها يسألونهم الحَنِيفِيّةَ دينَ إبراهيمَ. فأمّا ورقةُ بنُ نوفلٍ فتنصّر واستحكم في النّصرانيّة واتبع الكتب من أهلها، حتّى علم علما كثيرا من أهل الكتاب. ولم يكن فيهم أعدلُ أمرًا وأعدلُ شأنًا من زيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنّصارى والمِلَلِ كلِّها إلّا دينَ الحنيفيّةِ دينَ إبراهيمَ عليه السّلام، يُوَحِّدُ اللّهَ ويخلع مَن دونه، ولا يأكل ذبائح قومه، باداهم بالفراق لما هم فيه.

وكان الخطّاب قد آذاه أذًى كثيرا حتى خرج منه إلى أعلى مكّةَ، ووكل به الخطّابُ شبابا من قريشٍ وسفهاء من سفهائهم، فقال : لا تتركوه يدخل مكّةَ. فكان لا يدخلها إلا سرًّا منهم، فإذا علموا به أخرجوه وآذَوْه كراهية أن يُفْسِدَ عليهم دينهم أو يتابعه أحدٌ على ما هو عليه. وقال موسى بنُ عُقْبَةَ : سمعت

مَن أرضى يُحَدِّثُ عن زيدِ بنِ عَمْرو بنِ نُفَيْلٍ أنّه كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشّاةُ خلقها اللّه وأنزل لها من السماء ماءً وأنبت لها من الأرض، لِمَ تذبحونها على غير اسم اللّه ؟ إنكارا لذلك وإعظاما له. وقال يونس عن ابنِ إسحاقَ : وقد كان زيدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ قد عزم على الخروج من مكّةَ يضرب في الأرض يطلب الحنيفيّةَ دينَ إبراهيمَ، وكانت امرأته صفيَّةُ بنتُ الحضرميّ كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطّابَ بنَ نُفَيْلٍ. فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأوّل دين إبراهيم ويسأل عنه، ولم يزل في ذلك فيما يزعمون حتّى أتى المَوْصِلَ والجزيرةَ كلَّها، ثمّ أقبل حتّى أتى الشّامَ فَجَالَ فيها حتّى أتى راهبا بِبَيْعَةٍ من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علمُ النّصرانيّة فيما يزعمون. فسأله عن الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السلام، فقال له الرّاهب : إنّك لتسأل عن دينٍ ما أنت بِواجدٍ من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنّه قد أظلك خروج نبيّ وهذا زمانه. وقد كان شَامَ (شامه : نظر ما عنده) اليهوديّة والنّصرانيّة فلم يرض شيئا منها، فخرج سريعا حين قال له الرّاهب ما قال يريد مكّةَ، حتّى إذا كان بأرض لَخْمٍ عَدَوْا عليه فقتلوه.

وقال محمّدُ بنُ عثمان بنِ أبي شَيْبَةَ عن زيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ أنّه كان يتألّه في الجاهليّة. فانطلق - أي زيد - حتّى أتى رجلا من اليهود فقال له : أُحِبُّ أن تدخلني معك في دينك. فقال له اليهوديّ : لا أُدْخِلُكَ في ديني حتّى تَبوءَ بنصيبك من غضب اللّه. فقال : من غضب اللّه أفِرُّ. فانطلق حتّى أتى نصرانيّا فقال له : أحبّ أن تدخلني معك في دينك. فقال : لستُ أدخلك في ديني حتّى تبوء بنصيبك من الضلالة. فقال : من الضلالة أَفِرُّ. قال له النّصرانيّ : فإنّي أدلّك على دين إن اتبعته اهتديت. قال : أيّ دينٍ ؟ قال : دين إبراهيمَ. فقال زيد : اللّهمّ إنّي أُشْهِدُكَ أنّي على دين إبراهيم، عليه أحيا وعليه أموت. فذُكِرَ شأنه للنّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله فقال : هو أمّةٌ وحده يوم القيامة.

وقد روى موسى بنُ عقبةَ قال : قال زيدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ : شامَمْتُ اليهوديّةَ والنّصرانيّةَ فكرهتهما، فكنت بالشام وما والاه حتّى أتيت راهبا في صومعة فوقفت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهوديّةَ والنّصرانيّةَ فقال لي : أراك تريد دينَ إبراهيمَ يا أخا أهلِ مكّةَ، إنّك لتطلب دينًا ما يوجد اليوم أحدٌ يدين به، وهو دين

أبيك إبراهيمَ كان حنيفا، لم يكن يهوديّا ولا نصرانيّا كان يصلّي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحق ببلدك فإنّ اللّه يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفيّة وهو أكرم الخلق على اللّهِ.

وقال يونس عن ابن إسحاقَ : حدّثني بعض آل زيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ : إنّ زيدا كان إذا دخل الكعبة قال : لَبَّيْك حقًّا حقًّا، تعبُّدًا ورِقًّا، عُذْتُ بما عاذ به إبراهيم.

وذكر أبو داود الطَّيَالِسِيّ أنّ زيدَ بنَ عَمْرٍو وورقةَ بنَ نوفلٍ خرجا يلتمسان الدّين حتّى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بنِ عَمْرٍو : مِن أين أقبلتَ يا صاحبَ البعيرِ ؟ فقال : من بَنِيَّةِ إبراهيم - يعني الكعبة - فقال : وما تلتمس ؟ قال : ألتمس الدّين. قال : ارجع فإنّه يوشك أن يظهر في أرضك. فأمّا ورقةُ فتنصّر وأما أنا فعزمت على النّصرانيّة فلم يوافقني.

وجاء ابنُ زيدِ بنِ عَمْرٍو يعني سعيدَ بنَ زيد - أحد العشرة - رضي اللّه عنه فقال : يا رسول اللّه، إنّ أبي كما رأيت وكما بلغك، فاستغفر له. قال : نعم، فإنّه يُبْعَثُ يومَ القيامةِ أُمَّةً وحده.

وقال محمّد بنُ سعد عن حُجَيْرِ بنِ أبي إهابٍ قال : رأيت زيدَ بنَ عَمْرِو وأنا عند صنمٍ بُوانَةَ بعدما رَجَعَ من الشّام وهو يراقب الشّمسَ، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلّى ركعةً وسجدتين ثمّ يقول : هذه قبلةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ لا أعبدُ حجرا ولا أصلّي له ولا آكل ما ذُبِحَ له ولا أستقسم بالأزلام، وأنا أصلّي إلى هذا البيت حتّى أموتَ. وكان يَحُجُّ فيَقِفُ بعرفةَ وكان يلبّي فيقول : لَبَّيْكَ لا شريك لك ولا نِدَّ لك. ثمّ يدفع من عرفةَ ماشيا وهو يقول : لبَّيْكَ مُتَعَبِّدًا مَرْقوقًا.

وقال الواقديّ عن عامر بنِ أبي ربيعة قال : سمعت زيدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ يقول : أنا أنتظر نبيّا من ولد إسماعيل عليه السلام ثمّ من بني عبد المطّلب ولا أراني أُدْرِكُهُ، وأنا أُومِنُ به وأصدّقه وأشهد أنّه نبيّ. فإن طالت بك مدّةٌ فرأيته فأَقْرِئْهُ منّي السلام وسأخبرك ما نعته حتّى لا يخفى عليك. قلتُ : هَلُمَّ. قال : هو رجل ليس بالطّويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينَه حُمْرَةٌ وخاتم النّبوّة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه، ثمّ يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتّى يهاجر يثرب فيظهر أمرُه، فإياك أن تُخْدَعَ عنه فإنّي طُفْتُ البلاد كلَّها أطلب

دينَ إبراهيم فكان مَن أسأل مِن اليهود والنّصارى والمجوس يقولون : هذا الدينُ وراءك. وينعتونه مثل ما نعتّه لك، ويقولون : لم يَبْقَ نبيّ غيره. قال عامر بنُ ربيعةَ : فلمّا أسلمتُ أخبرتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قولَ زيدِ بنِ عَمْرِو وأقرأته منه السّلام، فردّ عليه السلام وترحّم عليه وقال : قد رأيتُه في الجنّةِ يَسْحَبُ ذيولا.

شيءٌ من الحوادث في زمنِ الفترةِ فمِن ذلك بُنْيَانُ الكعبةِ

وقد قيل إنّ أوّل من بناه آدم. وجاء في حديث مرفوع عن عبد اللّه بنِ عَمْرٍو وفي سنده ابنُ لَهيعَةَ وهو ضعيف. وأقوى الأقوال أنّ أوّل من بناه إبراهيم الخليل عليه السلام.

ذكرُ كعبِ بنِ لُؤَيٍّ

روى أبو نعيم عن أبي سَلَمَةَ قال : كان كَعْبُ بنُ لؤَيٍّ يجمع قومَه يوم الجمعة، وكانت قريش تُسَمِّي يومَ الجمعةِ العَرُوبَةَ، فيخطُبُهم فيقول : أمّا بعدُ، فاسمعوا وتعلّموا وافهموا واعلموا، ليلٌ ساجٍ ونهارٌ ضاحٍ والأرضُ مِهادٌ والسماءُ بناءٌ والجبالُ أوتادٌ والنّجومُ أعلامٌ والأوّلون كالآخرين، والأنثى والذّكر والرُّوحُ وما يهيجُ إلى بِلًى (فناء)، فَصِلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم وثمِّروا أموالكم، فهل رأيتم من هالك رجع أو ميّتٍ نُشِر ؟ الدار أمامكم والظَّنُّ غيرُ ما تقولون، حَرَمُكُم زَيِّنوه وعَظِّموه وتمسّكوا به، فسيأتي نبأٌ عظيمٌ وسيخرج منه نبيٌّ كريمٌ. ثمّ يقول : واللّهِ لو كنتُ فيها ذا سمعٍ وبصرٍ ويدٍ ورِجْلٍ لتنصَّبتُ فيها تنَصُّبَ الجملِ ولَأَرْقَلْتُ (أسرعتُ) فيها إرقالَ الفحلِ.

وكان بين موتِ كعبِ بنِ لؤَيٍّ ومَبْعَثِ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى إله خمسُمائةِ عامٍ وستّون سنةً.

ذكرُ تجديدِ حَفْرِ زمزمَ على يد عبد المطّلب بن هاشمٍ، التي كان قد درس رسمُها بعدَ طَمِّ جُرْهُمٍ لها إلى زمانه

قال محمّد بنُ إسحاقَ : ثمّ إنّ عبدَ المطّلب بينما هو نائم في الحِجْرِ إذ أُتِيَ فأُمِرَ بحفر زمزمَ. وعن عبدِ اللّه بنِ زُرَيْرٍ الغافِقِيِّ أنّه سمع عليَّ بنَ أبي طالب عليه السلام يُحدّثُ حديث زمزمَ حين أُمِرَ عبدُ المطّلب بحفرها، قال : قال عبدُ المطّلب : إنّي لنائم في الحِجْرِ إذ أتاني آتٍ فقال : اِحْفِرْ طِيبَةَ. قلتُ : وما طِيبَةُ ؟ ثمّ ذهب عنّي. فلمّا كان الغدُ، رجعتُ إلى مَضْجَعِي فنمتُ، فجاءني فقال : اِحْفِرْ بَرَّةَ. قلتُ : وما بَرَّةُ ؟ ثمّ ذهب عنّي. فلمّا كان الغدُ رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فجاءني فقال : احفر المَضْنونَةَ. قلتُ : وما المضنونةُ ؟ ثمّ ذهب عنّي. فلمّا كان الغدُ رجعتُ إلى مضجعي، فنمتُ فيه فجاءني فقال : احفر زمزمَ. قلتُ : وما زمزمُ ؟ قال : لا تَنْزِفُ أبدا ولا تُذِمُّ (لا يقلّ ماؤها)، تسقي الحجيجَ الأعظمَ وهي بين

الفَرْثِ والدَّمِ عندَ نُقْرَةِ الغراب الأعصمِ عند قرية النّمل. فلمّا بُيِّنَ له شأنُها ودُلَّ على موضعها وعَرَفَ أنّه صُدِقَ، غَدَا بِمِعْوَلِهِ ومعه ابنُه الحارثُ بنُ عبدِ المطّلب، وليس له يومئذٍ ولدٌ غيرُه. فحفر، فلمّا بَدَا لعبدِ المطّلب الطَّيُّ كَبَّرَ، فعرفت قريشٌ أنّه قد أدرك حاجته فقاموا إليه فقالوا : يا عبدَ المطّلب، إنّها بئرُ أبينا إسماعيل وإنّ لنا فيها حقًّا، فأشرِكنا معك فيها. قال : ما أنا بفاعل، إنّ هذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دونكم وأُعْطِيتُه من بينكم. قالوا له : فأنصِفْنا، فإنّا غيرُ تارِكِيك حتّى نُخاصِمَكَ فيها. قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أُحاكِمْكم إليه. قالوا : كاهنةُ بني سعدِ بنِ هُذَيْمٍ. قال : نعم. وكانت بأشراف مكّة. فركب عبدُ المطّلب ومعه نَفَرٌ من بني أبيه، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريشٍ نَفَرٌ. فخرجوا والأرضُ إذ ذاك مَفاوِزُ (جمع مفازة وهي الصحراء)، حتّى إذا كانوا ببعضها نَفِدَ ماء عبدِ المطّلب وأصحابِه، فعطِشوا حتّى استَيْقَنُوا بالهَلَكَةِ، فاستسقوا من معهم فأَبَوْا عليهم، وقالوا : إنّا بمفازة وإنّا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبدُ المطّلب : إنّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حُفْرَتَهُ لنفسه بما بكم الآن من القوّة، فكلّما مات رجلٌ دفعه أصحابُه في حفرته ثمّ وارَوْهُ، حتّى يكونَ آخرُهم رجلا واحدا، فضَيْعَةُ رجلٍ واحد

أيسرُ من ضَيْعَةِ رَكْبٍ جميعا. فقالوا : نِعْمَ ما أمرتَ به. فحفر كلُّ رجل لنفسه حفرةً، ثمّ قعدوا ينتظرون الموتَ عطشى. ثمّ إنّ عبدَ المطّلب قال لأصحابه : إنّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض لا نبتغي لأنفسنا لَعَجْزٌ، فعسى أن يرزقنا اللّهُ ماءً ببعض البلاد. فارتحلوا حتّى إذا بعث عبد المطّلب راحلته انفجرت من تحت خُفِّها عينُ ماءٍ عذبٍ، فكبّر عبد المطّلب وكبّر أصحابه، ثمّ نزل فشرب وشرب أصحابه واستَقَوْا حتّى مَلَؤُوا أسقيتهم، ثمّ دعا قبائل قريشٍ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال فقال : هَلُمُّوا إلى الماء فقد سقانا اللّهُ. فجاؤوا فشربوا واستقَوْا كلُّهم ثمّ قالوا لعبدِ المطّلب : قد واللّه قُضِيَ لك علينا، واللّه لا نخاصمك في زمزمَ أبدا، إنّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفَلاةِ لهو الذي سقاك زمزمَ، فارجع إلى سِقايتِك راشدا. فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخَلَّوْا بينه وبين زمزمَ.

وفي رواية أنّ عبدَ المطّلب وجد الغراب ينقر عند قرية النّمل بين الوثنين ؛ إسافٍ ونائلةَ، اللذين كانت قريشٌ تنحر عندهما. فجاء بالمِعْوَلِ وقام ليحفر حيثُ أُمِرَ، فقامت إليه قريشٌ فقالوا : واللّهِ لا نتركك تحفر بين وَثَنَيْنَا هذين الذين

نَنْحَرُ عندهما. فقال عبدُ المطّلب لابنه الحارث : ذُدْ عنّي حتّى أحفر، فواللّهِ لأمضِيَنَّ لما أُمِرْتُ به. فلمّا عرفوا أنّه غيرُ نازعٍ خَلَّوْا بينه وبين الحفر وكفُّوا عنه. فلم يحفر إلّا يسيرا حتّى بدا له الطَّيُّ، فكبّر وعرف أنّه قد صُدِقَ. فلمّا تمادى به الحفرُ وجد غزالتين من ذهبٍ، اللَّتَيْنِ كانت جُرْهُمٌ قد دفنتهما، ووجد فيها أسيافا قلعيّةً وأدراعا، فقالت له قريشٌ : يا عبدَ المطّلب، لنا معك في هذا شِرْكٌ وحقٌّ. قال : لا، ولكن هَلُمَّ إلى أمر نَصَفٍ بيني وبينكم، نضرب عليها بالقِداح. قالوا : وكيف تصنع؟ قال : أجعلُ للكعبة قِدْحين ولي قِدْحَيْنِ ولكم قِدْحين، فمن خرج قِدْحاه على شيء كان له، ومن تَخَلَّفَ قِدْحاه فلا شيء له. قالوا : أنصفتَ. فجعل للكعبة قِدحين أصفرَيْن وله أسودين ولهم أبيضين، ثمّ أعطوا القِداح للذي يضرب عند هُبَلَ، وهُبَلُ أكبر أصنامهم، ولهذا قال أبو سفيانَ يوم أُحُد : أُعْلُ هُبَل. وقام عبد المطّلب يدعو اللّه. فخرج الأصفران على الغزالتين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطّلب، وتخلّف قِدْحا قريشٍ. فضرب عبدُ المطّلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب في الباب الغزالتين من ذهب، فكان أوَّلَ ذهبٍ حُلِّيَتْهُ الكعبةُ فيما يزعمون. ثمّ إنّ عبدَ المطّلب أقام سِقَايَةَ زمزمَ للحاجِّ.

وذكر ابنُ إسحاقَ وغيرُه أنّ مكّةَ كان فيها أبيارٌ كثيرةٌ قبلَ ظهور زمزمَ في زمن عبد المطّلب، ثمّ عدّدها ابنُ إسحاقَ وسمّاها وذكر أماكنها من مكّةَ وحافِريها، إلى أن قال : فَعَفَتْ زمزمُ على البِئار كلِّها، وانصرف الناس كلُّهم إليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على من سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل ابنِ إبراهيم عليهما السلام، افتخرت بها بنو عبدِ منافٍ على قريشٍ كلِّها وعلى سائر العرب.

وقد ثبت في صحيح مسلم في حديث إسلام أبي ذرّ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال في زمزمَ : إنّها لطعامُ طُعْمٍ وشفاء سُقْمٍ.

وقد روى ابنُ ماجَةَ والحاكم عن ابنِ عباس أنّه قال لرجل : إذا شربت من زمزمَ فاستقبل الكعبة واذكر اسم اللّه وتنفس ثلاثا وتَضَلَّعْ (ضَلِعَ أي شبع وارتوى) منها، فإذا فرغت فاحمد اللّه فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : إنّ آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتَضَلَّعونَ من ماء زمزمَ.

وقد ذُكِرَ عن عبدِ المطّلب أنّه قال : اللّهمّ إنّي لا أُحِلُّها لمُغْتَسِلٍ وهي لشاربٍ حِلٌّ وبِلٌّ. وجعل لها حوضين ؛ حوضا

للشّرب وحوضا للوضوء. قال مُعْتَمِرُ بنُ سليمانَ : إنّ <بِلٌّ> بلغة حِمْيَرَ : مُباح.

وقد كانت السِّقايَة إلى عبد المطّلب أيام حياته، ثمّ صارت إلى ابنه أبي طالب مدّةً، ثمّ اتفق أنّه أَمْلَقَ في بعض السنين فاستدان من أخيه العبّاس عَشَرَةَ آلافٍ إلى الموسم الآخَرِ وصرفها أبو طالب في الحجيج في عامه فيما يتعلّق بالسِّقايةِ. فلمّا كان العامُ المقبِلُ لم يكن مع أبي طالبٍ شيءٌ فقال لأخيه العباس : أسلفني أربعة عشر ألفا إلى العام المقبل أُعْطِكَ جميعَ مالِكَ. فقال له العباس : بشرط إن لم تعطني تتركُ السِّقايةَ لي أَكْفِكَها. فقال : نعم. فلمّا جاء العامُ الآخرُ لم يكن مع أبي طالبٍ ما يُعْطي العبّاسَ فترك له السِّقايةَ فصارت إليه. ثمّ من بعده صارت إلى عبد اللّه ولده، ثمّ إلى عليّ بنِ عبدِ اللّه بنِ عباسٍ، ثمّ إلى داودَ بنِ عليٍّ، ثمّ إلى سليمانَ بنِ عليٍّ، ثمّ إلى عيسى بنِ عليٍّ، ثمّ أخذها المنصورُ واستناب عليها مولاهُ أبا رَزينٍ. ذكره الأُمَوِيُّ.

ذكرُ نَذْرِ عبدِ المطّلب ذبح أحدِ ولده

قال ابنُ إسحاقَ : وكان عبدُ المطّلب فيما يزعمون نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزمَ، لئن وُلِدَ له عشرة نَفَرٍ ثمّ بلغوا معه حتّى يمنعوه لَيَنْحَرَنَّ أحدهم للّه عند الكعبة. فلمّا تكامل بنوه عشرة وعرف أنّهم سيمنعونه، وهم ؛ الحارثُ والزّبيرُ وحَجْلٌ وضِرارٌ والمُقَوَّمُ وأبو لَهَبٍ والعبّاسُ وحمزةُ وأبو طالبٍ وعبدُ اللّهِ، جمعهم ثمّ أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء للّه عزّ وجلّ فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : لِيَأخذْ كلُّ رجل منكم قِدْحًا ثمّ يكتب فيه اسمه ثمّ ائْتُوني. ففعلوا، ثمّ أَتَوْهُ. فدخل بهم على هُبَلَ في جوف الكعبة، وكان هُبَلُ على بئرٍ في جوف الكعبة وكانت تلك البئر هي التي يُجْمَعُ فيها ما يُهْدى للكعبة. وكان عند هُبَلَ قِداحٌ سبعةٌ وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعْضَل عليهم أمرٌ من عَقْلٍ أو نَسَبٍ أو أمر من الأمور، جاؤوا فاستقسموا بها، فما أمرتهم به أو نَهَتْهم عنه امْتَثَلوهُ.

والمقصود أنّ عبدَ المطّلب لمّا جاء يستقسم بالقِداح عند هُبَلَ خرج القِدْحُ على ابنه عبدِ اللّهِ، وكان أصغرِ ولده وأحبَّهم إليه. فأخذ عبدُ المطّلب بيد ابنه عبدِ اللّه وأخذ الشّفرةَ ثمّ أقبل به إلى إسافٍ ونائلةَ ليذبحه فقامت إليه قريشٌ مِن أَنْدِيَتِها فقالوا : ما تريد يا عبدَ المطّلب ؟ قال : أذبحه. فقالت له قريشٌ وبنوه : واللّه لا تذبحه أبدا حتّى تُعْذِرَ فيه، لَئِنْ فعلتَ هذا لا يزال الرّجل يجيء بابنه حتّى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا. وذكر يونُسُ بنُ بُكَيْرٍ عن ابنِ إسحاقَ أنّ العبّاس هو الذي اجتذب عبدَ اللّهِ من تحت رجل أبيه حين وضعه ليذبحه. فيُقال : إنّه شَجَّ وجهه شَجًّا لم يزل في وجهه إلى أن مات. ثمّ أشارت قريشٌ على عبد المطّلب أن يذهب إلى الحِجازِ فإنّ بها عرّافةً لها تابعٌ فيسألَها عن ذلك، ثمّ أنت على رأس أمرك، إن أمَرَتْك بذبحه فاذبحه وإن أمرتك بأمرٍ لك وله فيه مَخْرَجٌ قَبِلْتَهُ. فانطلقوا حتّى أَتَوُا المدينة فوجدوا العرّافةَ وهي سَجاحُ بخَيْبَرَ. فركبوا حتّى جاؤوها فسألوها، وقَصَّ عليها عبدُ المطّلب خبرَه وخبر ابنه. فقالت لهم : ارجعوا عنّي اليومَ حتّى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها. فلمّا خرجوا قام عبدُ المطّلب يدعو اللّهَ، ثمّ غَدَوْا عليها، فقالت لهم : قد جاءني الخبرُ، كم الدِّيَةُ فيكم ؟ قالوا : عشرٌ من الإبل. وكانت كذلك.

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثمّ قَرِّبُوا صاحبكم وقرّبوا عشْرًا من الإبلِ، ثمّ اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبِكم فزيدوا من الإبل حتّى يرضى ربُّكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربُّكم ونجا صاحبُكم. فخرجوا حتّى قَدِموا مكّةَ، فلمّا أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبدُ المطّلب يدعو اللّهَ، ثمّ قرّبوا عبدَ اللّه وعشْرًا من الإبلِ ثمّ ضربوا. فخرج القِدْحُ على عبدِ اللّهِ، فزادوا عشْرًا، ثمّ ضربوا فخرج القِدح على عبدِ اللّهِ فزادوا عشْرًا. فلم يزالوا يزيدون عَشْرًا عَشْرًا ويخرجُ القِدْحُ على عبد اللّهِ حتّى بلغت الإبلُ مائةً. ثمّ ضربوا فخرج القِدحُ على الإبلِ، فقالت عندَ ذلك قريشٌ لعبدِ المطّلب وهو قائمٌ عندَ هُبَلَ يدعو اللّهَ : قد انتهى رِضَى ربِّك يا عبدَ المطّلب. فزعموا أنّه قال : لا، حتّى أضرب عليها بالقِداح ثلاث مرات. فضربوا ثلاثا، ويقعُ القِدحُ فيها على الإبل، فنُحِرَتْ ثمّ تُرِكَتْ لا يُصَدُّ عنها إنسانٌ ولا يُمْنَعُ.

وقد روى ابنُ جريرٍ أنّ ابنَ عبّاسٍ سألته امرأةٌ أنّها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة، فأمرها بذبح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصّة عن عبدِ المطّلب. وسألت عبدَ اللّهِ بنَ عُمَرَ فلم يُفْتِها بشيءٍ بل توقّف. فبلغ ذلك مروانَ بنَ الحكمِ وهو أميرٌ

على المدينة فقال : إنّهما لم يصيبا الفُتْيا، ثمّ أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من الخير ونَهَاها عن ذبح ولدها، ولم يأمرها بذبح الإبل. وأخذ النّاس بقول مروانَ في ذلك، واللّه أعلمُ.

ذكرُ تزويجِ عبدِ المطّلبِ ابنَه عبدَ اللّهِ من آمنةَ بنتِ وهبٍ الزُّهريّةِ

قال ابنُ إسحاقَ : ثمّ انصرف عبدُ المطّلب آخذا بِيَدِ ابنِه عبدِ اللّهِ، فمَرَّ به على امرأةٍ من بني أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ قُصَيّ، وهي أمُّ قَتَّالٍ أختُ ورقةَ بنِ نوفلِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ قصيٍّ وهي عند الكعبةِ، فنظرت إلى وجهه فقالت : أين تذهبُ يا عبدَ اللّهِ ؟ قال : مع أبي. قالت : لك مثلُ الإبل التي نُحِرَتْ عنك وَقَعْ عليَّ الآنَ. قال : أنا مع أبي ولا أستطيع خِلافهُ ولا فِراقهُ. فخرج به عبد المطّلب حتّى أتى به

وَهْبَ بنَ عبدِ منافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لؤيِّ بنِ غالبِ بنِ فِهْرٍ، وهو يومئذ سيّدُ بني زُهرةَ نَسَبًا وشرفا. فزوَّجه ابنته آمنةَ بنتَ وهبٍ وهي يومئذ سيّدةُ نساء قومها. فزعموا أنّه دخل عليها حين أُمْلِكها مكانه، فوقع عليها فحملت برسول اللّه، ثمّ خرج من عندها. فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها : ما لكِ لا تعرضين عليّ اليومَ ما كنتِ عرضتِ عليّ بالأمسِ ؟ فقالت له : فارقك النّور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليومَ حاجةٌ. وقد كانت تسمع من أخيها ورقةَ بنِ نوفلٍ - وكان قد تنصّر واتّبع الكتب - أنّه كائن في هذه الأمّة نبيّ، فطمِعت أن يكون منها، فجعله اللّه تعالى في أشرف عنصرٍ وأكرمِ مَحْتِدٍ وأطيبِ أصلٍ كما قال تعالى : ﴿ اَللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِه ﴾ [الأنعام ١٢٤].

وروى أبو نُعَيْمٍ الحافظ في كتاب [دلائل النّبوّة] عن العبّاس قال : إنّ عبدَ المطّلب قَدِمَ اليمن في رحلة الشتاء فنزل على حَبْرٍ من اليهود. فقال له رجل من أهل الزَّبورِ يعني أهل الكتاب : يا عبدَ المطّلب، أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم ما لم يكن عَوْرَةً. ففتح إحدى مَنْخَرَيْهِ فنظر فيه ثمّ نظر في الآخر فقال : أشهدُ أنّ في إحدى يديك مُلْكًا وفي

الأخرى نُبُوَّةً، وأنّا نجد ذلك في بني زُهْرَةَ فكيف ذلك ؟ قال : لا أدري. قال هل لك من شَاعَةٍ. قال : وما الشّاعةُ ؟ قال : الزّوجة. قال : أمّا اليوم فلا. قال : فإذا رجعت فتزوّج فيهم. فرجع عبدُ المطّلب فتزوّج هالةَ بنتَ وُهَيْبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زُهْرَةَ، فولدت حمزةَ وصفيّةَ. ثمّ تزوّج عبدُ اللّه بنُ عبدِ المطّلب آمنةَ بنتَ وهْبٍ فولدت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله. فقالت قريشٌ حين تزوّج عبدُ اللّه بآمنةَ : فَلَج. أي فاز وغلب عبدُ اللّه على أبيه عبدِ المطّلبِ.

كتابُ سيرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، وذكرُ أيّامه وغزواته وسراياه والوفودِ إليه، وشمائله وفضائله ودلائله الدّالّة عليه

بابُ ذكرِ نسبه الشريف وطِيبِ أصله المُنِيفِ

لمّا سأل هِرَقْلُ ملك الرّوم أبا سفيانَ عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال : كيف نسبُه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نَسَبٍ. قال : كذلك الرّسل تُبْعَثُ في أنساب قومها. يعني في أكرمها أحسابا وأكثرها قبيلةً. صلوات اللّه عليهم أجمعين.

فهو سيّد ولدِ آدم وفخرُهم في الدنيا والآخرة، أبو القاسمِ وأبو إبراهيمَ، محمّد وأحمدُ، والماحي الذي يُمْحى به الكفرُ والعاقب الذي ليس بعده نبيّ، والحاشر الذي يُحْشَرُ النّاس على قدميه، والمُقَفَّى (الذي قَفَى مَن قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم)، ونبيّ الرحمة ونبيّ التوبة ونبيّ الملحمة، وخاتَمُ النّبيّين والفاتح وطَهَ ويَس وعبدُ اللّهِ.

قال البَيْهَقِيُّ : وزاد بعض العلماء فقال : سمّاه اللّه في القرآن رسولا، نبيّا، أُمِّيًّا، شاهدًا، مُبَشِّرًا، نذيرا، وداعيا إلى اللّه بإذنه وسراجا منيرا، ورؤوفا رحيما، ومُذَكِّرًا، وجعله رحمةً ونِعمةً وهاديًا.

اسمُ عبدِ المطّلبِ، جدّ رسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله، شَيْبَةُ، يقال لشَيْبَةٍ كانت في رأسه. ويقال له : شيبةُ الحمدِ، لجُودِهِ. وإنّما قيل له عبدُ المطّلب لأنّ أباه هاشِمًا لمّا مرّ بالمدينة في تجارته إلى الشام، نزل على عَمْرِو بنِ زيدِ بنِ لبيدِ بنِ حرامِ بنِ خِداشِ بنِ عامرِ بنِ غَنْمِ بنِ عَدِيّ بنِ النّجّارِ الخَزْرَجِيّ النّجّاريّ، وكان سيّد قومِه فأعجبته ابنته سَلْمَى، فخطبها إلى أبيها فزوّجها منه واشترط عليه مُقامَها عنده. وقيل : بل اشترط عليه أن لا تلد إلّا عنده بالمدينة. فلمّا رجع

من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكّةَ، فلمّا خرج في تجارة أخذها معه وهي حُبْلى فتركها بالمدينة ودخل الشام فمات بغَزَّةَ. ووضعت سلمى ولدها فسمّته شَيْبَةَ. فأقام عند أخواله بني عديّ بنِ النّجّار سبْعَ سنين. ثمّ جاء عمُّه المُطَّلب بنُ عبدِ منافِ فأخذه خُفْيَةً من أمّه فذهب به إلى مكّةَ. فلمّا رآه الناس ورأوه على الرّاحلةِ قالوا : من هذا معك ؟ فقال : عبدي. ثمّ جاؤوا فهنّؤوه به وجعلوا يقولون له: عبدُ المطّلبِ لذلك. فغَلَبَ عليه وَسَاد في قريشٍ سيادةً عظيمةً وذهب بشرفهم ورئاستهم، فكان جِماعُ أمرهم إليه، وكانت إليه السِّقايةُ والرِّفادةُ بعدَ المُطَّلبِ. وهو الذي جَدَّدَ حَفْرَ زمزمَ بعدما كانت مَطْمومةً من عهد جُرْهُمٍ، وهو أوّلُ من حَلَّى الكعبةَ بذهبٍ في أبوابها من تَيْنِكَ الغزالتين اللتين من ذهبٍ وَجَدَهُمَا في زمزم مع تلك الأسياف القَلْعيّةِ.

قال ابنُ هشامٍ : وعبدُ المطّلب أخو أسدٍ ونَضْلَةَ وأبي صَيْفِيٍّ وحَيَّةَ وخالدةَ ورُقَيَّةَ والشِّفاءِ وضعيفةَ. كلُّهم أولادُ هاشمٍ، واسمُه عَمْرٌو، وإنّما سُمِّيَ هاشما لهَشْمِهِ الثَّريدَ مع اللّحم لقومه في سِنِي المَحْلِ.

وكان هاشمٌ أوّل من سنَّ رحلتيْ الشّتاء والصّيف، وكان أكبر ولد أبيه. وحكى ابنُ جريرٍ أنّه كان تَوْأمَ أخيه عبدِ شمسٍ، وأنّ هاشما خرج من بطن أُمّه ورِجْلُهُ مُلتَصِقَةٌ برأس عبدِ شمسٍ، فما تخلّصتْ حتّى سال بينهما دمٌ. فقال النّاسُ : بذلك يكون بين أولادهما حروبٌ. فكانت وقعةُ بني العبّاس مع بني أميّةَ بنِ عبدِ شمسٍ سنةَ ثلاثٍ وثلاثين ومائةٍ من الهجرةِ. وشقيقهم الثالث المُطّلبُ، وكان أصغر ولدِ أبيه وأمّهم عاتِكَةُ بنتُ عمرو المازنيّةُ. وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرّياسةُ، وكان يقال لهم : المُجيرونَ، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريشٍ الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التّجارات إلى بلادهم. فكان هاشم قد أخذ أمانا من ملوك الشام والرّوم وغسّانَ وأخذ لهم عبدُ شمسٍ من النّجاشيّ الأكبر ملك الحبشة، وأخذ لهم نوفلٌ من الأكاسرة، وأخذ لهم المطّلبُ أمانا من ملوك حِمْيَرَ.

وكان إلى هاشمٍ السِّقايةُ والرِّفادةُ بعد أبيه، وإليه وإلى أخيه المطّلب نسبُ ذوي القربى. وقد كانوا شيئا واحدا في حالتيْ الجاهليّة والإسلام لم يفترقوا، ودخلوا معهم في الشّعْبِ وانخذل عنهم بنو عبدِ شمسٍ ونوفلٍ.

ولا يُعْرفُ بنو أبٍ تباينوا في الوفاة مثلهم ؛ فإنّ هاشما مات بغَزَّةَ من أرض الشّامِ، وعبدَ شمسٍ مات بمكّةَ، ونوفلا مات بسلمانَ من أرض العراق، ومات المطّلبُ - وكان يُقال له القمرُ لحُسْنِه - بردْمانَ من طريق اليمن، فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم : هاشمٌ وعبدُ شمسٍ ونوفلٌ والمُطَّلبُ، ولهم أخٌ خامس ليس بمشهور وهو أبو عَمْرٍو واسمُه عبدٌ، وأصل اسمه عبدُ قُصيٍّ، فقال النّاس : عبدُ قصيٍّ دَرَجَ ولا عَقِبَ له. وأخوات ستّةٌ وهنّ : تُماضِرُ وحَيَّةٌ ورَيْطَةٌ وقِلابَةٌ وأمُّ الأخْثَمِ وأمُّ سفيانَ.

قال ابنُ عبّاسٍ وغيرُه في قوله تعالى من سورة الشورى ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ لم يكن بطنٌ من بطون قريشٍ إلا ولرسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله نسبٌ يتصل بهم. وصدق ابنُ عبّاس رضي اللّه عنه فيما قال، وأزيدُ مما قال ؛ وذلك أنّ جميع قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء وكثيرٌ منهم بالأمّهات أيضا.

ورد في صحيح مسلم عن واثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : إنّ اللّه اصطفى من ولد إبراهيمَ إسماعيلَ واصطفى من بني إسماعيلَ كِنانةَ، واصطفى من بني كِنانَةَ قريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ واصطفاني من بني هاشمٍ.

وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ عن العبّاس بنِ عبد المطّلب قال : قلتُ : يا رسول اللّه، إنّ قريشا إذا التَقوْا لَقِيَ بعضُهم بعضا بالبشاشة، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. فغضب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله عند ذلك غضبا شديدا ثمّ قال : والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لا يدخل قلبَ رجلٍ الإيمانُ حتّى يحبَّكم لله ورسوله. فقلت : يا رسول اللّه، إنّ قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوا مثلك مثل نخلةٍ في كَبْوَةٍ من الأرض. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : إنّ اللّه يومَ خلَق الخلْق جعلني في خيرهم، ثمّ لمّا فرّقهم قبائل جعلني في خيرهم قبيلة، ثمّ حين جعل البيوت جعلني في خيرِ بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا.

وثبت في الصّحيح أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : أنا سيّدُ ولدِ آدمَ يوم القيامةِ ولا فَخْرَ.

وروى الحاكم والبَيْهَقِيُّ عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : قال لي جبريل : قلّبتُ الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمّدٍ، وقلبتُ الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أبٍ أفضلَ من بني هاشمٍ.

وروى الحافظ أبو القاسم ابنُ عَساكِرَ عن ابنِ عبّاسٍ قال : سألتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فقلتُ : فِداكَ أبي وأمّي، أين كنتَ وءادمُ في الجنّة ؟ فتبسّم حتّى بدت نَواجِذُهُ ثمّ قال : كنتُ في صُلْبِه، ورُكِبَ بيَ السّفينةُ في صُلْبِ أبي نوحٍ، وقُذِفَ بي في صُلْبِ أبي إبراهيمَ، لم يَلْتَقِ أبوايَ على سِفاحٌ قَطُّ، لم يَزَلِ اللّهُ يَنْقُلُني من الأصلاب الحَسيبةِ إلى الأرحام الطّاهرةِ، صِفَتِي مَهْدِيٌّ لا يَنْشَعِبُ شُعبتان إلّا كنتُ في خيرهما، قد أخذ اللّهُ بالنّبوّةِ ميثاقي وبالإسلام عهدي، وبشّر في التّوراة والإنجيل ذِكْري وبَيّنَ كلُّ نبيٍّ صِفَتي، تُشْرِقُ الأرضُ بنوري والغَمامُ لوجهي، وعلّمني كتابه، رَوَى بي سَحابَهُ وشَقَّ لي اسمًا من أسمائه، فذو العرشِ محمودٌ وأنا محمّد، ووعدني أن يَحْبُوَني بالحوض والكوثر، وأن يجعلني

أوّل شافع وأوّل مُشَفَّعٍ، ثمّ أخرجني من خير قَرْنٍ لأمّتي وهم الحَمَّادونَ يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكر.

قال القاضي عياض في كتابه [الشِّفاء] : وأمّا أحمدُ الذي أتى في الكتب وبشّرت به الأنبياء فمنع اللّه بحكمته أن يُسَمّى به أحدٌ غيرُه ولا يُدْعى به مَدْعُوٌّ قبله، حتّى لا يدخل لَبْسٌ على ضعيف القلب أو شكٌّ. وكذلك محمّد لم يُسَمَّ به أحدٌ من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبلَ وجوده وميلاده أنّ نبيّا يُبْعَثُ اسمُه محمّد، فسمّى قومٌ قليلٌ من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدَهم هو وهم : محمّدُ بنُ أُحَيْحَةَ بنِ الجُلاحِ الأَوْسِيّ ومحمّدُ بنُ مَسْلَمَةَ الأنصاريّ ومحمّدُ بنُ البراء البكريّ ومحمّدُ بنُ سفيان بن مُجاشِعٍ ومحمّدُ بنُ حُمرانَ الجُعْفيّ ومحمّدُ بنُ خُزاعيٍّ السُّلَمِيّ، لا سابع لهم.

باب مَوْلِدِ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله

وُلِدَ صلوات اللّه عليه وسلامُه يومَ الاثنين، لما رواه مسلم عن أبي قتادةَ أنّ أعرابيّا قال : يا رسول اللّه، ما تقول في صوم يومِ الاثنينِ ؟ فقال : ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه وأُنزِلَ عليّ فيه.

وقال الإمامُ أحمدُ عن ابنِ عبّاسٍ قال : وُلِدَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يومَ الاثنين، واستُنْبِئَ يومَ الاثنين، وخرج مهاجرا من مكّة إلى المدينة يومَ الاثنين، وقَدِمَ المدينة يومَ الاثنين، وتُوُفِّيَ يومَ الاثنين، ورفع الحَجَرَ الأسودَ يومَ الاثنين. والجمهورُ على أنّه وُلِدَ في شهر ربيعِ الأوّل لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا منه. وقيل غير ذلك. وقال ابنُ إسحاقَ : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عامَ الفيل وهذا هو المشهور عن الجمهور. وبُعِثَ على رأسِ أربعينَ سنةً من الفيل.

وسأل عثمانُ رضي الله عنه قُباثَ بنَ أُشَيْمٍ أخا بني يَعْمُرَ ابن لَيْثٍ : أنتَ أكبرُ أم رسولُ اللّهِ ؟ فقال : رسول اللّه أكبر منّي وأنا أقدمُ منه في الميلاد.

صفة مولده الشّريف عليه الصّلاة والسّلام

حين حملت آمنة بنتُ وهبٍ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله توفي أبوه عبد اللّه. وقال محمّد بنُ سعد في الطّبقات عن أيّوبَ بنِ عبدِ الرّحمن بنِ أبي صَعْصعَةَ وعن محمّد بنِ كعب قالا : خرج عبدُ اللّهِ بنُ عبد المطّلب إلى الشّام إلى غزّةَ في عيرٍ من عيرات قريشٍ يحملون تجاراتٍ، ففرغوا من تجاراتهم ثمّ انصرفوا فمرّوا بالمدينة وعبدُ اللّهِ بنُ عبدِ المطّلبِ يومئذ مريضٌ فقال : أتخلّفُ عند أخوالي بني عديّ ابنِ النّجّار. فأقام عندهم مريضا شهرًا ومضى أصحابُه فقدموا

مكّةَ. فسألهم عبد المطّلب عن ابنه عبد اللّه فقالوا : خلّفناه عند أخواله بني عديّ بنِ النّجّار وهو مريض. فبعث عبدُ المطّلب أكبرَ ولده الحارثِ فوجده قد توفّي ودُفن في دار النّابغة، فرجع إلى أبيه فأخبره. فوجد عليه عبدُ المطّلب وإخوتُه وأخواتُه وَجْدًا شديدًا، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يومئذٍ حَمْلٌ ولعبدِ اللّهِ بنِ عبد المطّلب يومَ تُوُفِّيَ خمسٌ وعشرونَ سنةً. وماتت أمُّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وهو ابنُ أربعِ سنين، وماتَ جدّه وهو ابنُ ثمانِ سنينَ، فأوصى به إلى عمّه أبي طالبٍ.

فكانت آمنةُ بنتُ وهبٍ أمُّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله تحدّثُ أنّها أُتِيَتْ حين حملتْ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فقيل لها : إنّكِ قد حملتِ بسيّد هذه الأمّةِ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي : أُعيذهُ بالواحد من شرّ كلِّ حاسد في كلّ بَرٍّ عامد وكلِّ عبدٍ رائد، نزولَ غيرِ زائد، فإنّه عبدُ الحميد الماجد، حتّى أراه قد أتى المشاهد. وآية ذلك أنّه يخرجُ معه نورٌ يملأُ قصورَ بُصرى من أرض الشّام، فإذا وقع فسمّيه محمّدًا، فإنّ اسمَه في التّوراة أحمدُ، يحمده أهلُ السّماء وأهل الأرض، واسمُه في الإنجيل أحمدُ يحمده أهلُ السّماء وأهلُ

الأرض، واسمُه في القرآن محمّد. وهذا وذاك يقتضي أنّها رأتْ حين حملت به عليه الصّلاةُ والسّلامُ كأنّه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشّام، ثمّ لمّا وضعته رأت عِيانًا تأويل ذلك كما رأته قبلَ ذلك في المنام. واللّه أعلم.

وقال محمّد بنُ سعدٍ في الطّبقات عن ابنِ عبّاسٍ أنّ آمنةَ بنتَ وهبٍ قالت : لقد عَلِقْتُ به - تعني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله - فما وجدتُ له مشقّةً حتّى وضعته، فلمّا فُصِلَ منّي خرج معه نورٌ أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثمّ وقع على الأرض معتمدًا على يديه ثمّ أخذ قبضةً من التّراب فقبضها ورفع رأسه إلى السّماء. وقال بعضهم : وقع جاثيا على ركبتيه وخرج معه نورٌ أضاءت له قصور الشّام وأسواقها حتّى رأيتُ أعناق الإبل ببُصرى رافعا رأسه إلى السّماء.

وقال الحافظ أبو بكرٍ البَيْهَقِيُّ في الدّلائل عن عثمان بنِ أبي العاصِ، حدّثتني أمّي أنّها شَهِدَتْ وِلادةَ آمنةَ بنتِ وهبٍ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله ليلةَ ولدته، قالت : فما شيءٌ أنظرُ إليه في البيتِ إلّا نورٌ، وإنّي أنظرُ إلى النّجوم تدنو حتّى إنّي لأقولُ : ليَقَعْنَ عليَّ.

وقال البَيْهَقِيُّ في الدّلائل أيضا عن ابنِ عبّاسٍ عن أبيه العبّاس بنِ عبد المطّلب، رضي اللّه عنهما، قال: وُلِدَ رسول اللّه مختونا مسرورا. قال: فأعجبَ جدّهُ عبدَ المطّلب وحَظِيَ عنده، وقال: ليكونَنَّ لابني هذا شأنٌ. فكان له شأنٌ. وفي الحديث عن أنَسٍ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: مِن كرامتي على اللّه أنّي وُلِدْتُ مَخْتونًا ولم يرَ سوأتي أحدٌ. وقد رُوِيَ أنّ جدّهُ عبدَ المطّلب خَتَنَهُ وعمِلَ له دعوةً جمع قريشًا عليها. واللّهُ أعلمُ.

وقال البيهقيّ عن أبي الحَكَمِ التَّنوخِيِّ قال: كان المولود إذا وُلِدَ في قريشٍ دفعوه إلى نسوةٍ من قريشٍ إلى الصُّبْحِ يَكْفَأْنَ (كفأ الإناء أي أماله ليَصُبَّ ما فيه) عليه بُرْمَةً، فلمّا أصبحنَ أتَيْنَ فوجَدْنَ البُرْمَةَ قد انفَلَقَتْ عنه باثنتين ووجدْنَهُ مفتوح العين شاخصا ببصره إلى السّماء. فأتاهنّ عبدُ المطّلب فقُلْنَ له: ما رأينا مولودًا مثله، وجدناه قد انفلقت عنه البُرْمَةُ ووجدناه مفتوح العينين شاخصًا ببصره إلى السّماء. فقال: اِحفظْنَهُ فإنّي أرجو أن يكون له شأن أو أن يصيب خيرًا. فلمّا كان اليومُ السّابعُ ذبح عنه ودعا له قريشًا، فلمّا أكلوا قالوا: يا عبدَ المطّلب، أرأيتَ ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه، ما

سمَّيْتَهُ ؟ قال : سَمَّيْتُهُ محمّدًا. قالوا : فَلِمَ رغِبْتَ به عن أسماء أهل بيتِه ؟ قال : أردتُ أن يحمدَه اللّهُ غي السّماء وخلقُهُ في الأرض. قال أهلُ اللغة : كلُّ جامعٍ لصفات الخير يُسَمَّى محمّدًا.

وقال بعض العلماء : أَلْهَمَهم اللّهُ عزّ وجلّ أن سَمّوه محمّدًا لما فيه من الصّفات الحميدة، ليلتقيَ الاسمُ والفعلُ ويتطابقَ الاسمُ والمُسمّى في الصّورة والمعنى.

وقال الحافظ أبو بكرٍ البَيْهَقِيُّ عن العبّاسِ بنِ عبدِ المطّلب رضي اللّه عنه قال : قلتُ : يا رسول اللّه، دعاني إلى الدّخول في دينك أمارةٌ لنُبُوَّتِكَ، رأيتُك في المهدِ تُناغي القمرَ وتُشيرُ إليه بأُصْبُعِكَ، فحيثُ أشرتَ إليه مالَ. قال : إنّي كنتُ أحدّثه ويُحَدِّثني ويُلْهيني عن البكاء، وأسمع وجْبَتَهُ حين يسجدُ تحت العرش.

فصلٌ فيما وقع من الآيات ليلةَ مولده عليه الصّلاة والسّلام

حكى السُّهَيْلِيُّ عن تفسير بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ الحافظِ أنّ إبليسَ رنَّ أربع رنّاتٍ ؛ حين لُعِنَ وحينَ أُهْبِطَ وحينَ وُلِدَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وحينَ أُنْزِلتِ الفاتحةُ.

قال محمّد ابنُ إسحاقَ عن عائشةَ قالت : كان يهوديٌّ قد سكن مكّةَ يتَّجِرُ بها، فلمّا كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال في مجلسٍ من قريشٍ : يا معشرَ قريشٍ، هل وُلِدَ فيكم الليلةَ مولودٌ ؟ فقال القوم : واللّه ما نعلَمُه. فقال : اللّهُ أكبرُ، أمَا إذا أخطأكم فلا بأسَ، اُنظروا واحفظوا ما أقول لكم : وُلِدَ هذه الليلةَ نبيُّ هذه الأمّة الأخيرة، بين كَتِفَيْهِ علامةٌ فيها شَعَراتٌ مُتَواتِراتٌ كأنّهنّ عُرْفُ فَرَسٍ، لا يرضع ليلتين وذلك أنّ عِفريتًا من الجِنّ أدخلَ أُصبُعَهُ في فَمِهِ فمنعه الرَّضاعَ. فتصدَّعَ القومُ من مجْلِسِهم وهم يتعجّبون من

قوله وحديثه. فلمّا صاروا إلى منازلهم أخبرَ كُلُّ إنسانٍ منهم أهلَه، فقالوا : قد وُلِدَ لعبدِ اللّه بنِ عبد المطّلب غلامٌ سَمَّوْهُ محمّدًا. فالتقى القومُ فقالوا : هل سمعتم حديثَ اليهوديّ ؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلامِ ؟ فانطلقوا حتّى جاءوا اليهوديَّ فأخبروه الخبرَ. قال : فاذهبوا معي حتّى أنظر إليه. فخرجوا به حتّى أدخلوه على آمنةَ، فقال : أخرجي إلينا ابنك. فأخرجته، وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشَّامَةَ، فوقع اليهوديُّ مَغْشِيًّا عليه، فلمّا أفاق قالوا له : ما لَكَ ؟ وَيْلَكَ ! قال : ذهبتْ واللّهِ النُّبوَّةُ من بني إسرائيل، أفَرِحْتُم به يا معشر قريشٍ ؟ أَمَا واللّهِ لَيَسْطُوَنَّ بكم سَطْوَةً يخرجُ خبرُها من المشرق والمغرب.

وقال محمّدُ بنُ إسحاقَ في السّيرة لابن هشامٍ عن حسّانَ بنِ ثابتٍ قال : إنّي لَغلامٌ يَفَعَةٌ ابنُ سبعِ سنينَ أو ثمانِ سنينَ، أَعْقِلُ ما رأيتُ وسمعتُ، إذا يهوديٌّ بيَثْرِبَ يصرخُ ذاتَ غَدَاةٍ : يا معشرَ يهودَ. فاجتمعوا إليه، وأنا أسمعُ، فقالوا : ويْلك ما لَكَ ؟ قال : طَلَعَ نجمُ أحمدَ الذي يُولَدُ به في هذه الليلةِ.

وروى الحافظ أبو نُعَيْمٍ في كتاب [دلائل النّبوّة] عن أبي سعيدٍ قال : سمعتُ أبي مالكَ بنَ سِنانٍ يقول : جئتُ بني عبدِ

الأَشْهَلِ يومًا لأتحدّثَ فيهم ونحنُ يومئذٍ في هُدْنَةٍ من الحربِ، فسمعتُ يوشَعَ اليهوديَّ يقول : أَظَلَّ خروجُ نبيّ يقالُ له أحمدُ، يخرجُ من الحَرَمِ. فقال له خليفةُ بنُ ثَعْلَبَةَ الأَشْهَلَيُّ كالمُسْتهزِئِ به : ما صِفَتُهُ ؟ فقال : رجلٌ ليس بالقصير ولا بالطّويل، في عينيه حُمْرَةٌ، يلبسُ الشَّمْلَةَ ويركبُ الحمار، سَيْفُهُ على عاتقه وهذا البلدُ مُهاجَرُهُ. قال : فرجعتُ إلى قومي بني خُدْرَةَ، وأنا يومئذٍ أتعجّبُ مما قال يوشَعُ، فأسمعُ رجلا منّا يقول : ويوشَعُ يقول هذا وحده ؟ كلُّ يهودُ يَثْرِبَ يقولون هذا. قال أبي، مالكُ بنُ سِنانٍ : فخرجتُ حتّى جئتُ بني قُرَيْظَةَ فَأَجِدُ جَمْعًا، فتذاكروا النّبيَّ صلّى اللّهُ عليه وعلى آله، فقال الزُّبَيْرُ بنُ باطا : قد طلع الكوكبُ الأحمرُ الذي لم يطلُع إلّا لخروج نبيٍّ وظهورِه، ولم يَبْقَ أحدٌ إلّا أحمدُ وهذا مُهاجَرُهُ. قال أبو سعيدٍ : فلمّا قَدِمَ النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله أخبره أبي هذا الخبرَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : لو أسلم الزُّبيرُ وذَوُوهُ من رؤساء اليهودِ، إنّما هم له تَبَعٌ. وفي روايةٍ : فلمّا قَدِمَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله المدينةَ أنكروا وحَسَدُوا وكفروا.

وقال أبو نُعَيْمٍ عن أسامةَ بنِ زيدٍ قال : قال زيدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ : قال لي حَبْرٌ من أحبار الشّامِ، قد خرج في بلدك نبيٌّ، أو هو خارجٌ، قد خرح نجمه فارجع فصَدِّقْهُ واتَّبِعْهُ.

ذكرُ ارْتِجاسِ (ارتجاف) إيوانِ كِسْرى وسقوطِ الشُّرُفاتِ، وخمودِ النِّيرانِ ورُؤيا المُوبِذانِ وغير ذلك من الدّلالات

قال الحافظُ أبو بكرٍ محمّدُ بنُ جعفرِ بنِ سَهْلٍ الخرائطيُّ في كتاب [هواتف الجانّ] عن أبي مَخْزُومِ بنِ هانئ المَخْزومِيّ - وأتَتْ عليه خَمسون ومائةُ سَنَةٍ - قال : لمّا كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها رسول اللّه صلّى الله عليه وعلى آله، ارتَجَسَ إيوانُ كِسْرى وسقطتْ منه أربعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً وخَمَدَتْ نارُ فارسَ، ولم تَخْمُدْ قبل ذلك بألف عامٍ، وغاضت بُحَيْرَةُ ساوَةَ، ورأى الموبِذانُ إبِلًا صِعابًا تقودُ خَيْلًا عِرابًا قد قطعت دِجْلَةَ

وانتشرت في بلادها. فلمّا أصبح كِسْرى أفزعه ذلك، فتصَبَّرَ عليه تَشَجُّعًا، ثمّ رأى أنّه لا يَدَّخِرُ ذلك عن مَرَازِبَتِهِ. فجمعهم ولَبِسَ تاجه وجلس على سريره، ثمّ بعث إليهم. فلمّا اجتمعوا عنده قال : أتَدْرونَ فِيمَ بعثتُ إليكم ؟ قالوا : لا إلّا أن يُخْبِرنا الملكُ. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتابٌ بخُمودِ النِّيران، فازداد غمًّا إلى غمِّه، ثمّ أخبرهم بما رأى وما هاله. فقال الموبِذانُ : وأنا قد رأيتُ في هذه الليلة رؤيا. ثمّ قصّ عليه رؤياه في الإبِل، فقال : أيُّ شيء يكون هذا يا موبِذانُ ؟ قال : حدثٌ يكونُ في ناحيةِ العرب. وكان أعلَمَهم من أنفسهم. فكتب عند ذلك : مِن كِسْرى ملك الملوك إلى النُّعمان بنِ المنذر ؛ أمّا بعدُ، فَوَجِّه إليَّ برجلٍ عالمٍ بما أريد أن أسأله عنه. فوجّه إليه بعبد المسيح بنِ عَمْرِو بنِ حَيَّانَ بنِ بُقَيْلَةَ الغسّانيّ، فلمّا ورد عليه قال له : أ لك علمٌ بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال : لِيُخْبرني أو لِيَسْألْني الملك عمّا أحَبَّ، لإن كان عندي منه علمٌ أخبرتُه وإلّا أخبرتُه بمَن يعلمُ. فأخبره بالذي وَجَّهَ به إليه فيه. قال : عِلْمُ ذلك عندَ خالٍ لي يسكن مَشارِفَ الشّام يقال له سَطِيحٌ. قال : فَأْتِه فاسألْهُ عمّا سألتك عنه، ثمّ ائْتِني بتفسيره. فخرج عبدُ المسيح حتّى انتهى إلى سَطِيحٍ، فسلّم عليه وكلّمه، فَلَمْ يردُّ إليه سَطِيحٌ جوابًا، فأنشأ يقول شعرًا.

فلمّا سمع سَطيحٌ شِعْرَهُ رفع رأسه يقول : عبدُ المسيحْ على جَمَلٍ مُشِيحْ إلى سَطيحْ وقد أوْفى على الضَّريحْ، بعثك ملك بني ساسانْ لارتِجَاسِ الإيوانْ وخُمودِ النّيران ورُؤيا الموبِذانْ رأى إبِلًا صِعابًا تقود خَيْلًا عِرابًا، قد قطعتْ دِجْلَةَ وانتشرت في بلادها. يا عبدَ المسيحِ، إذا كَثُرتْ التِلاوةُ وظَهَر صاحبُ الهِراوةِ وفاض وادي السّماوة وغاضت بحيرة ساوَةَ، وخَمَدَتْ نيرانُ فارِسَ، فليس الشّامُ لسطيحٍ شامًا، يملك منهم ملوكٌ ومَلِكاتْ على عدد الشُّرُفاتْ، وكلُّ ما هو آتٍ آتْ. ثمّ قضى سَطِيحٌ مكانه، فنهض عبدُ المسيحِ إلى راحلته وهو يقول شعرًا.

فلمّا قَدِمَ عبدُ المسيحِ على كِسْرى، أخبره بما قال له سَطِيحٌ، فقال كِسْرى : إلى أن يملك منّا أربعةَ عَشَرَ ملكا كانت أمورٌ وأمورٌ. فمَلَكَ منهم عشرةٌ في أربعِ سنينَ، ومَلَكَ الباقون إلى خِلافة عثمانَ رضي اللّه عنه.

وكان آخرَ ملوكهم - الذي سُلِبَ منه المُلْكُ - يَزْدَجِرْدُ بنُ شَهْريارَ بنِ أبْرَوِيزَ بنِ هُرْمُزَ بنِ أنُوشِرْوانَ، وهو الذي انشقّ الإيوانُ في زمانه. وكان لأسلافه في المُلكِ ثلاثةُ آلاف سنةٍ

ومائـةٌ وأربعـةٌ وستّونَ سنةً، وكان أوّلَ ملوكهم خَيُومَرْتُ بنُ أميمَ بنِ لاوَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السّلامُ.

ذكرُ حَواضِنِه ومَراضِعه عليه الصّلاة والسّلام

كانت أمُّ أيمنَ واسمُها بَرَكَةُ تَحْضُنُهُ، وكان قد وَرِثها، عليه الصّلاةُ والسّلام، من أبيه. فلمّا كَبِرَ أعْتَقها وزوّجها مولاهُ زيدَ بنَ حارِثةَ، فولدتْ له أسامةَ بنَ زيدٍ رضي اللّه عنهم. وأرضعته مع أمِّه مولاةُ عمِّه أبي لَهَبٍ ثُوَيْبَةُ قبلَ حليمةَ السَّعْدِيَّةَ.

وفي الصّحيحين عن أمِّ حبيبةَ بنتِ أبي سفيانَ أنّها قالت : يا رسول اللّه، اِنْكِحْ أختي بنتَ أبي سفيان عَزَّةَ. فقال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله: أَوَ تُحبِّينَ ذلك ؟ قالت : نعم ! لستُ لك بِمُخْلِيَةٍ، وأحَبُّ مَن شاركني في خيرٍ أختي.

فقال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله: فإنّ ذلك لا يَحِلُّ لي. قالت : فإنّا نُحَدَّثُ أنّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سَلَمَةَ. قال : بنتَ أمِّ سَلَمَةَ ؟ قالت : نعم. قال : إنّها لو لم تكن رَبِيبَتِي في حِجْري ما حَلَّتْ لي، إنّها لَابْنَةُ أخي من الرّضاعة أرضعتني وأبا سَلَمَةَ ثَوَيْبَةُ، فلا تَعْرِضَنْ عليَّ بناتكنَّ ولا أخواتكنّ. زاد البخاريّ ؛ قال عُرْوَةُ : وثُوَيْبَةُ مولاةٌ لأبي لهبٍ، وكان أبو لهبٍ أعتقها فأرضعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله. فلمّا مات أبو لهبٍ أُرِيَهُ بعضُ أهلِه بِشَرِّ حِيبَةٍ، فقال له : ماذا لَقِيتَ ؟ فقال أبو لهبٍ : لم أَلْقَ بعدكم خيرًا، غيرَ أنّي سُقيتُ في هذه - وأشار إلى النُّقْرَةِ الاي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع - بعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ.

وذكر السُّهَيْلِيُّ وغيرُه أنّ الرّائيَ له هو أخوه العبّاسُ. وكان ذلك بعدَ سنةٍ من وفاة أبي لهبٍ بعد وقعةِ بَدْرٍ. وفيه أنّ أبا لهبٍ قال للعبّاس : إنّه ليُخَفَّفُ عليّ في مثل يوم الاثنين. قالوا : لأنّه لمّا بشّرَتْهُ ثُوَيْبَةُ بميلاد ابنِ أخيه محمّدِ بنِ عبد اللّه أعتقها من ساعته. فجُوزِيَ بذلك لذلك.

ذكرُ رضاعه عليه الصّلاةُ والسّلام من حليمةَ بنتِ أبي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيَّةُ وما ظهر عليه من البركة وآيات النّبوّةِ

قال محمّدُ بنُ إسحاقَ : واسْتُرْضِعَ له عليه الصّلاةُ والسّلام، من حليمةَ بنتِ أبي ذُؤَيْبٍ، واسمُه عبدُ اللّه بنُ الحارثِ بنِ شِجْنَةَ بنِ جابِرِ بنِ رِزَامِ بنِ ناصِرَةَ بنِ سعدِ بنِ بكْرِ بنِ هَوازِنَ بنِ منصورِ بنِ عِكْرِمَةَ بنِ خَصَفَةَ بنِ قيسِ بنِ عَيْلانَ بنِ مُضَرَ، واسمُ أبي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله - يعني زوج حليمةَ - الحارثُ بنُ عبدِ العُزَّى بنِ رفاعَةَ بنِ مَلّانَ بنِ ناصِرَةَ بنِ سَعْدِ بنِ بكْرِ بنِ هَوازِنَ. وإخوتُه، عليه الصّلاةُ والسّلامُ - يعني من الرّضاعةِ - عبدُ اللّه بنُ الحارث، وأُنَيْسَةُ بنتُ الحارث، وحُذافةُ بنتُ الحارث وهي الشّيماء، وذكروا أنّها كانت تَحْضُنُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مع أمّه إذ كان عندهم.

قال ابنُ إسحاقَ عن عبدِ اللّه بنِ جَعْفَرَ بنِ أبي طالبٍ قال : حُدِّثتُ عن حليمةَ ابنة الحارث أنّها قالت : قَدِمْتُ مكّةَ في نسوةٍ - ذكر الواقديّ أنّهنّ كُنَّ عَشَرَ نسوةٍ من بني سعدِ بن بَكْرٍ يَلْتَمِسْنَ بها الرُّضعاء - وفي سنةٍ شَهْبَاءَ. فقَدِمْتُ على أتانٍ لي قَمْراءَ كانت أذَمَّتْ بالرّكب (حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها)، ومعي صبيّ لنا، وشارفٌ (النّاقة الهَرِمَة المُسِنَّةُ) لنا واللّه ما تَبِضُّ بقطرةٍ (ما تُنْزِلُ قطرةً من لبن)، وما ننامُ ليلتنا ذلك أجمعَ مع صبيّنا ذاك، ما نجد في ثَدْيَيَّ ما يُغنيه ولا في شارفنا ما يُغَذِّيه، ولكنّا كنّا نرجو الغيث والفَرَجَ. فخرجتُ على أتاني تلك فلقد أذمَّتْ بالرّكبِ حتّى شَقَّ ذلك عليهم ضعفًا وعَجَفًا. فقَدِمْنا مكّةَ فواللّه ما علمتُ منّا امرأةً إلّا وقد عُرِضَ عليها رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فتأباه إذا قيل إنّه يتيم، تركناه وقلنا : ماذا عسى أن تصنع إلينا أُمُّه، إنّما نرجوا المعروف من أبي الولد. فواللّه ما بقي من صَواحِبي امرأةٌ إلّا أخذت رضيعا غيري. فلمّا لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاقَ قلتُ لزوجي الحارث بنِ عبدِ العُزّى : واللّه إنّي لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيعٌ، لأنطلقنّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذنَّهُ. فقال : لا عليكِ أن تفعلي، فعسى اللّهُ أن يجعل لنا فيه بركةً. فذهبتُ فأخذته، فواللّه ما أخذتُه

إلّا أنّي لم أجد غيره. فماهو إلّا أن أخذته فجِئتُ به رحلي فأقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبنٍ، فشرب حتّى رَوِيَ، وشرب أخوه حتّى رَوِيَ. وقام صاحبي إلى سارفنا تلك فإذا إنّها لحافِلٌ، فحَلَبَ ما شرب وشربتُ حتّى رَوِينا، فَبِتْنا بخيرِ ليلةٍ. فقال صاحبي حين أصبحنا : يا حليمةُ، واللّهِ إنّي لأراك قد أخذتِ نَسَمَةً مباركة، ألم تَرَيْ ما بتنا به الليلةَ من الخير والبركةِ حين أخذناه. فلم يَزَلِ اللّه عزّ وجلّ يزيدنا خيرا، ثمّ خرجنا راجعين إلى بلادنا، فواللّه لَقَطعتْ أتاني بالرّكب حتّى ما يتعلّقُ بها حمارٌ، حتّى أنّ صواحِبي ليَقُلْنَ : ويْلَكِ يا بنتَ أبي ذُؤَيْبٍ ! هذه أتانُك التي خرجتِ عليها معنا ؟ فأقول : نعم، واللّه إنّها لهي. فيَقُلْنَ : واللّه إنّ لها لَشأنًا. حتّى قَدِمنا أرضَ بني سعدٍ، ولا أعلمُ أرضًا من أرض اللّه أجْدَبُ منها، فإن كانت غنمي لَتَسْرَحُ ثمّ تروحُ شِباعًا لبنًا، فَنَحْلِبُ ما شِئنا، وما حولنا أحدٌ تَبِضُّ له شاةٌ بقطرةِ لبنٍ، وإنّ أغنامهم لتروح جياعًا حتّى إنّهم ليقولون لرُعاتهم أو لرُعْيانهم : وَيْحَكم ! أُنظروا حيث تَسْرحُ غنمُ بنتِ أبي ذُؤَيْبٍ فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فيُريحُونَ أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبنٍ وتروح أغنامي شِباعًا لبنًا نحْلِبُ ما شِئْنا. فلم يزل اللّه يرينا البركةَ ونَتَعَرَّفُهَا حتّى بلغ سنتين. فكان يَشِبُّ

شبابا لا يَشِبُّه الغِلمانُ، فواللّه ما بلغ السّنتين حتّى كان غلاما جَفْرًا (أي انتفخ لحمه). فقَدِمنا به على أمّه ونحن أضَنُّ شيءٍ به ممّا رأينا فيه من البركة. فلمّا رأته أمّه قلنا لها : يا ظِئْرُ، دعينا نرجع بابننا هذه السّنة الأخرى فإنّا نخشى عليه وباء مكّة. فواللّه مازلنا بها حتّى قالت : فنعم. فسَرَّحَتْهُ معنا. فأقمنا به شهرين أو ثلاثةً، فبينا هو خلف بيوتنا مع أخٍ له من الرضاعة في بَهْمٍ (الصغار من الضأن) لنا، جاءنا أخوه ذلك يشتدُّ فقال : ذاك أخي القُرشيّ قد جاءه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاه فشقّا بطنه. فخرجتُ أنا وأبوه نشتدُّ نحوه، فنجده قائمًا مُنْتَقَعًا (متغيّر اللون) لونُه، فاعتنقه أبوه وقال : يا بُنَيَّ، ما شأنُك ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقّا بطني ثمّ استخرجا منه شيئا فطرحاه، ثمّ رداه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه : يا حليمةُ، لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أُصيبَ، فانطلقي بنا نرُدُّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوّف. قالت حليمةُ : فاحتملناه فلم تُرَعْ أمُّه إلّا به، فقدمنا به عليها، فقالت : ما رَدَّكما به، فقد كنتما عليه حَريصَيْنِ ؟ فقلنا : لا واللّه يا ظِئْرُ، إلّا أنّ اللّه قد أدّى عنّا وقضينا الذي علينا، وقلنا : نخشى الإتلاف والأحداث، نردُّ إلى أهله. فقالت : ما ذاك بكما

فاصدُقاني شأنَكما. فلم تدعنا حتّى أخبرناها خبره. فقالت : أخَشِيتما عليه الشيطان ؟ كلّا واللّه ما للشيطان عليه من سبيل، واللّه إنّه لكائنٌ لابني هذا شأنٌ، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى. فقصّت عليهما قصّة النور الذي رأته.

وقال الواقديّ عن ابن عبّاس قال : خرجتْ حليمةُ تطلب النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله، وقد وجدت البَهْمَ تَقِيلُ، فوجدته مع أخته فقالت : في هذا الحرّ ! فقالت أخته : يا أُمَّهْ، ما وجد أخي حرًّا رأيتُ غمامةً تُظِلُّ عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتّى انتهى إلى هذا الموضع.

وقال ابنُ إسحاقَ عن أصحاب رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وعلى آله ورضي عنهم، أنّهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك. قال : أن دعوة أبي إبراهيمَ وبُشرى عيسى عليهما السّلام، ورأت أمّي حين حملت بي أنّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشّامِ، واستُرْضِعتُ في بني سعدِ بنِ بكرٍ، فبينا أنا في بَهْمٍ لنا أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ معهما طَسْتٌ من ذهبٍ مملوءٌ ثلجًا، فأضجعاني فشَقَّا بطني ثمّ استخرجا قلبي فشَقّاهُ فأخرجا منه عَلَقَةً سوداء فألقياها، ثمّ غسلَا قلبي وبطني بذلك الثّلج، حتّى إذا أنْقياه ردّاهُ كما كان. ثمّ قال

أحدهما لصاحبه : زِنْهُ بعشرةٍ من أمّتِه. فَوَزَنَنِي بعَشَرَةٍ فوزنتهم. ثمّ قال : زنه بمائةٍ من أمّته، فوزنني بمائة فوزنتهم. ثمّ قال : زنه بألفٍ من أمّته، فوزنني بألف فوزنتهم. فقال : دَعْهُ عنك فلو وزنته بأمَّته لَوَزَنَهم. وفي رواية أنّ جبريل أتاه وقال حين أخرج العَلَقَةَ : هذا حظّ الشيطان منك.

والمقصودُ أنّ بركتَه عليه الصّلاةُ والسّلامُ، حلّتْ على حليمةَ السّعديّةِ وأهلِها وهو صغير. ثمّ عادت على هَوازِنَ بكمالهم فواضلُه حين أسرهم بعد وقْعَتِهم وذلك بعد فتح مكّةٍ بشهرٍ، فَمَتُّوا (توسّلوا) إليه برضاعه فأعتقهم وتحنّن عليهم وأحسن إليهم.

قال محمّدُ بنُ إسحاقَ أنّ الصّحابةَ كانوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله بِحُنَيْنٍ، فلمّا أصاب من أموالهم وسباياهم، أدركه وفدُ هَوازِنَ بالجِعْرانَةِ وقد أسلموا، فقالوا : يا رسول اللّه، إنّا أصلٌ وعشيرةٌ وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك فامنُنْ علينا منَّ اللّه عليك. وقام خطيبُهم زُهَيْرُ بنُ صُرَدٍ فقال : يا رسول اللّه، إنّ ما في الحظائر من السبايا خالاتُك وحواضنُكَ اللاتي كُنَّ يَكْفُلْنَكَ، فلو أنّا مَلَحْنا (أرضعنا) ابنَ أبي شَمِرٍ أو النّعمانَ بنَ المُنذرِ ثمّ أصابنا منهما

مثلُ الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت خير المكفولين، ثمّ أنشد شعرًا. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: أمّا ما كان لي ولِبني عبدِ المطّلب فهو للّه ولكم. فقالت الأنصارُ : وما كان لنا فهو للّه ولرسوله.

فصلٌ

قال ابنُ إسحاقَ بعد ذكر رجوعه عليه الصّلاةً والسّلامُ إلى أمِّه آمنة بعد رضاعة حليمةَ له : فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مع أُمِّه آمنةَ بنتِ وهبٍ وجدّه عبد المطّلب في كلاءة اللّه وحِفظِه، يُنْبِتُهُ نباتًا حسنًا لما يريد من كرامته، فلمّا بلغ سِتّ سنينَ تُوُفِّيَتْ أُمُّه آمنة بنتُ وهبٍ بالأبواء بين مكّةَ والمدينة، كانت قد قَدِمَتْ به على أخواله من بني عَدِيٍّ بنِ النّجّارِ تُزِيرُهُ إيّاهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكّةَ. وذكر الواقديّ أنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله خرجتْ به أمّه إلى المدينة ومعه أمُّ أيمنَ. قالت أمُّ أيمنَ : فجاءني ذات يوم رجلان

من يهود المدينة فقالا لي : أخرجي إلينا أحمدَ ننظر إليه. فنظرا إليه وقلّباه فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبيّ هذه الأمّةِ وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسّبي أمرٌ عظيم. فلمّا سمعت أمُّه خافت وانصرفت به، فماتت بالأبواء وهي راجعةٌ.

وقال الإمام أحمدُ عن بُرَيْدَةَ قال : خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله حتّى إذا كنّا بِوَدَّانَ قال : مكانَكم حتّى آتِيَكم. فانطلق ثمّ جاءنا وهو سقيم، فقال : إنّي أتيتُ قبرَ أمّي فسألتُ ربيَ الشفاعة - يعني لها - فمَنَعَنيها، وإنّي كنت نَهَيْتُكم عن زيارة القبور فَزُورُوها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام فكلوا وأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن هذه الأشربة في هذه الأوعية فاشربوا فيما بدا لكم.

وقال الإمام أحمدُ عن عبد اللّه بنِ عَمْرٍو قال : بينما نحن نمشي مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إذ بَصُرَ بامرأةٍ لا نظُنُّ أنّه عرفها، فلمّا توسّط الطّريق وقف حتّى انتهت إليه، فإذا هي فاطمةُ عليها السّلام، فقال : ما أخرجك من بيتك يا فاطمةُ ؟ فقالت : أتيتُ أهلَ هذا البيت فرحّمتُ إليهم ميّتَهم وعزّيتُهم. قال : لعلّك بلغتِ معهم الكُدى (جمع كُدْيَة وهي

الأرض الصلبة وأراد هنا المقابر). قالت : معاذ اللّه أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر. قال : لو بَلَغْتِها معهم ما رأيتِ الجنّةَ.

فصلٌ

قال ابنُ إسحاقَ : وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مع جدّه عبد المطّلب بنِ هاشمٍ - يعني بعد موت أمّه آمنة بنتِ وهبٍ - فكان يُوضَعُ لعبد المطّلب فراشٌ في ظلّ الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذاك حتّى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالا له. فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يأتي وهو غلامٌ جَفْرٌ حتّى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليُؤَخِّروه عنه، فيقول عبدُ المطّلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابني فواللّه إنّ له لشأنًا. ثمّ يُجْلِسُه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسرّه ما يراه يصنع.

وقال قومٌ من بني مُدْلِجٍ لعبدِ المطّلب : اِحتفظ به، فإنّا لم نَرَ قَدَمًا أشبه بالقدم الذي في المقام منه. فقال عبد المُطّلب لأبي طالبٍ : اِسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالبٍ يحتفظ به. وقال عبدُ المطّلب لأمِّ أيمنَ - وكانت تَحْضُنُه - : يا بَرَكَةُ، لا تَغْفُلي عن ابني فإنّي وجدته من غِلْمانٍ قريبا من السِّدْرَةِ، وإنّ أهلَ الكتاب يزعمون أنّ ابني نبيٌّ هذه الأمّة. وكان عبدُ المطّلب لا يأكل طعاما إلا يقول : عَلَيَّ بابني. فيُؤْتى به إليه. فلمّا حضرت عبدَ المطّلب الوفاةُ أوصى أبا طالبٍ بحِفْظِ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وحِياطَتِهِ. ثمّ ماتَ عبدُ المطّلب ودُفِنَ بالحَجُونِ.

وقال ابنُ إسحاقَ : فلمّا بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله ثماني سنينَ هلكَ جدُّهُ عبدُ المطّلب بنُ هاشمٍ. ثمّ ذكر جَمْعَهُ بناتِه وأمرَهُ إيّاهنَّ أن يَرْثِينَهُ وهنَّ : أروى وأُميمةُ وبَرَّةُ وصَفِيَّةُ وعاتكةُ وأمُّ حكيمٍ البيضاءُ، وذكر أشعارهنَّ وما قُلْنَ في رِثاءِ أبيهنَّ وهو يسمع قبل موته. وقد قال ابنُ هشامٍ : ولم أرَ أحدًا من أهل العلم بالشِّعْر يعرف هذا الشِّعرَ.

قال ابنُ إسحاقَ : فلمّا هلك عبدُ المطّلب بنُ هاشمٍ وَلِيَ زمزمَ والسّقايةَ بعده ابنُهُ العبّاسُ، وهو من أحدث إخوته سِنًّا.

فلم تَزَلْ إليه حتّى قام الإسلامُ وأقرّها في يده رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله.

وكان رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله بعدَ جَدِّهِ عبدِ المطّلب مع عمِّه أبي طالبٍ، لوصيّةِ عبدِ المطّلب له به ولأنّه كان شقيقَ أبيه عبدِ اللّه، أمُّهما فاطمةُ بنتُ عَمْرٍو بنِ عائِذِ بنِ عِمرانَ بنِ مخزومٍ. فكان أبو طالبٍ هو الذي يلي أمرَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وكان إليه ومعه.

وقال الواقديُّ عن جماعةٍ : لمّا توفي عبدُ المطّلب قبض أبو طالبٍ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فكان يكون معه، وكان أبو طالبٍ لا مال له، وكان يحبّه حبًّا شديدا لا يُحِبُّه ولدَه، وكان لا ينام إلّا إلى جنبه ويخرجُ فيخرجُ معه. وصَبَّ (رقّ واشتاق) به أبو طالبٍ صَبابَةً لم يَصَبَّ مثلها بشيء قَطُّ. وكان يخُصُّهُ بالطّعام، وكان إذا أكل عيالُ أبي طالبٍ جميعا أو فُرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله شبعوا. فكان إذا أراد أن يُغَدِّيَهم قال : كما أنتم حتّى يأتيَ ابني. فيأتي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فيأكل معهم، فكانوا يُفْضِلونَ من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالبٍ : إنّك لَمُبارَكٌ. وكان الصبيانُ

يصبحون رُمْصًا (اجتماع وسخ أبيض في موقع العين) شُعْثًا ويُصبحُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله دَهِينًا كَحِيلًا.

وقال ابنُ إسحاقَ عن عبّادِ بنِ عبدِ اللّه بنِ الزُّبيرِ أنّ رجلا من لِهْبٍ كان عائِفًا (المتكهّن بالطّير أو غيرها)، فكان إذا قَدِمَ مكّةَ أتاه رجالٌ من قريشٍ بغِلْمانهم ينظر إليهم ويَعْتافُ لهم فيهم. فأتى أبو طالبٍ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وهو غلام مع من يأتيه. فنظر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله ثمّ شَغَلَه عنه شيءٌ، فلمّا فرغ قال : الغلام، عَلَيَّ به. فلمّا رأى أبو طالبٍ حِرْصَهُ عليه غَيَّبَهُ عنه، فجعل يقول : ويلكم، رُدُّوا عَلَيَّ الغلامَ الذي رأيتُه آنفا، فواللّه ليكوننّ له شأنٌ. وانطلق به أبو طالبٍ.

فصل في خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمّه أبي طالبٍ وقِصَّتِه مع بَحِيرَى الرّاهب

قال ابنُ إسحاقَ : ثمّ إنّ أبا طالبٍ خرج في رَكْبٍ تاجرًا إلى الشام، فلمّا تهَيَّأَ للرحيل وأجْمعَ السَّيْرَ صَبَّ به رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله- فيما يزعمون - فَرَقَّ له أبو طالبٍ وقال : واللّه لأخرُجَنَّ به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبدا. أو كما قال. فخرج به معه، وكان عمره إذ ذاك ثنتيْ عشر سنةٍ، فلمّا نزل الرّكبُ بُصْرى من أرض الشام وبها راهبٌ يقالُ له بَحِيرَى في صومعةٍ له، وكان إليه علم أهلِ النّصرانيّة، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قطُّ (الدّهر) راهبٌ، إليه يصير علمهم عن كتابٍ - فيما يزعمون - يَتَوارثُونه كابِرًا عن كابرٍ. فلمّا نزلوا ذلك العامَ بِبَحِيرَى وكانوا كثيرًا ما يمرّونَ به قبل ذلك فلا يكلّمهم ولا يعرض لهم، حتّى كان ذلك العامُ. فلمّا نزلوا قريبًا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا وذلك عن

شيءٍ رآه وهو غي صومعته. يزعمون أنّه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله في الرّكبِ، حين أقبلوا، وغمامةٌ تُظِلُّهُ من بين القوم، ثمّ أقبلوا فنزلوا في ظلِّ شجرةٍ قريبًا منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلّت الشّجرةَ وتَهَصَّرَتْ (تَدَلَّتْ) أغصانُ الشجرة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله حتّى استظلّ تحتها. فلمّا رأى ذلك بَحِيرَى نزل من صومعته وقد أمر بطعامٍ فصُنِعَ ثمّ أرسل إليهم. فقال : إنّي قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشر قريشٍ فأنا أحبُّ أن تَحضروا كلُّكم صغيرُكم وكبيرُكُم وعبدُكم وحُرُّكُمْ. فقال له رجل منهم : واللّه يا بَحِيرَى إنّ لك لشأنًا اليومَ ! ما كنتَ تصنع هذا بنا وقد كُنّا نَمُرُّ بك كثيرًا، فما شأنُك اليومَ ؟ قال له بَحِيرَى : صدقتَ، قد كان ما تقول ولكنّكم ضيفٌ وقد أحببتُ أن أكرمَكم وأصنعَ لكم طعامًا فتأكلوا منه كُلُّكم. فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله من بين القوم لِحَداثَةِ سِنِّهِ في رِحالِ القومِ تحتَ الشّجرةِ. فلمّا نظر بَحِيرَى في القوم لم يَرَ الصِّفَةَ التي يعرف ويجد عنده، فقال : يا معشر قريشٍ لا يتخلّفنَّ أحدٌ منكم عن طعامي. قالوا : يا بحيرى، ما تخلّفَ أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلّا غلامٌ وهو أحدثُنا سِنًّا فتخلّفَ في رِحالنا. قال : لا تفعلوا ! أُدعوه فَلْيَحْضُرْ هذا الطّعام معكم. فقال رجل من

قريشٍ مع القوم : واللّاتِ والعُزَّى إن كان لَلُؤْمًا بنا أن يتخلّف محمّدُ بنُ عبدِ اللّه بنِ عبدِ المطّلب عن طعامٍ من بيننا. ثمّ قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم. فلمّا رآه بحيرى جعل يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياءَ من جسده قد كان يجدُها عنده من صِفته. حتّى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام إليه بحيرى وقال له : يا غلامُ، أسألكَ بحَقِّ اللّاتِ والعُزَّى إلّا أخبرتني عمّا أسألك عنه. وإنّما قال له بحيرى ذلك ذلك لأنّه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال له : لا تسألني باللّاتِ والعُزّى، فواللّه ما أبغضتُ شيئًا قَطُّ بُغْضَهما. فقال له بحيرى : فباللّه إلّا ما أخبرتني عمّا أسألك عنه. فقال له : سلني عمّا بدا لك. فجعل يسأله عن أشياءَ من حاله ؛ من نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يُخْبِرُهُ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ثمّ نظر إلى ظهره فرأى خاتم النّبوّةِ بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. فلمّا فرغ أقبل على عمّه أبي طالبٍ فقال : ما هذا الغلامُ منك ؟ قال : ابني. قال بحيرى : ماهو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا. قال : فإنّه ابنُ أخي. قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمُّه حُبْلى به. قال : صدقتَ، ارجع بابنِ أخيك

إلى بلده واحذر عليه يهودَ، فواللّه لَئِنْ رَأَوْهُ وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّهُ شَرًّا، فإنّه كائنٌ لابنِ أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ فأسرع به إلى بلادِه. فخرج به عمُّه أبو طالبٍ سريعا حتّى أَقْدَمَهُ مكّةَ حين فرغ من تجارته بالشام.

قال ابنُ إسحاقَ : فزعموا - فيما روى النّاس - أنّ زُرَيْرًا وتَمَّامًا ودَريسًا - وهم نفرٌ من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مثلما رأى بحيرى في ذلك السّفر الذي كان فيه مع عمّه أبي طالبٍ، فأرادوه فردّهم عنه بحيرى فذَكَّرهم اللّهَ وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنّهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يَخْلُصُوا إليه، حتّى عرفوا ما قال لهم وصدّقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه.

وشَبَّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مع أبي طالبٍ يَكْلَؤُهُ اللّه ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهليّة ومعائبها لما يريد من كرامته، حتّى بلغ أن كان رجلًا أفضلَ قومِه مروءةً وأحسنَهم خُلُقًا وأصدقهم حديثًا وأبعدهم من الفُحْشِ والأذى، ما رُؤِيَ مُلاحِيًا (مخاصما منازعا) ولا مُمَارِيًا أحدًا حتّى سمّاه قومُه الأمينَ لِمَا جمع اللّه فيه من الأمور الصالحة، فكان أبو طالبٍ يحفظه ويَحُوطُهُ وينصرُهُ ويَعْضُدُهُ حتّى مات.

فصلٌ في مَنْشَئِهِ عليه الصلاة والسلام، ومَرْباه، وكفايةِ اللّه له وحِياطتِه وكيف كانَ يتيمًا فآواه وعائلًا فأغناه

قال محمّدُ بنُ إسحاقَ : فشَبَّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يَكْلَؤُهُ اللّهُ ويحفظه ويَحوطُهُ من أقذار الجاهليّةِ لِمَا يريد به من كرامته ورسالته، حتّى بلغ أن كان رجلًا أفضلَ قومه مُروءةً وأحسنَهم خُلُقًا وأكرمَهم نَسَبًا وأحسنهم جِوارًا وأعظمَهم حِلْمًا وأصدقهم حديثا وأعظمَهم أمانةً وأبعدهم من الفُحْشِ والأخلاق التي تُدَنِّسُ الرجالَ تَنَزُّهًا وتَكَرُّمًا حتّى ما اسمُه في قومه إلا الأمينُ لِمَا جمع اللّهُ فيه من الأمور الصالحة. وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله- فيما ذُكِرَ لي - يُحَدِّثُ عمّا كان اللّهُ يحفظُه به في صِغَرِهِ وأمرِ الجاهليّةِ أنّه قال : لقد رأيتني في غِلْمانٍ من قريشٍ نَنْقُلُ

الحجارة لبعض ما يلعبُ به الغلمان، كلُّنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة. فإنّي لَأُقْبِلُ معهم كذلك وأُدْبِرُ إذ لكمني لاكِمٌ ما أراه لَكْمَةً وجيعةً ثمّ قال : شُدَّ عليك إزارك. فأخذته فشَدَدْتُهُ عَلَيَّ ثمّ جعلتُ أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عَلَيَّ من بين أصحابي.

وروى البَيْهَقِيُّ عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ قال : سمعتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يقول : ما هممتُ بشيء مما كان أهل الجاهليّةِ يَهُمُّونَ به من النّساء إلّا ليلتين، كِلتاهما عصمني اللّهُ عزّ وجلّ فيهما. قلتُ ليلةً لبعض فتيان مكّةَ - ونحن في رِعاءِ غنمِ أهلها - فقلتُ لصاحبي : أَبْصِرْ لي غنمي حتّى أدخل مكّةَ أَسْمُرُ فيها كما يسمُرُ الفتيانُ. فقال : بلى. فدخلتُ حتّى إذا جئتُ أوّلَ دارٍ من دُورِ مكّةَ سمعتُ عزفًا بالغرابيلِ والمزاميرِ، فقلتُ : ما هذا ؟ قالوا : تزوّج فلانٌ فلانةَ. فجلستُ أنظر، وضرب اللّه على أذني فواللّه ما أيقظني إلّا مَسُّ الشّمس. فرجَعْتُ إلى صاحبي فقال : ما فعلتَ ؟ فقلتُ : ما فعلتُ شيئًا. ثمّ أخبرته بالذي رأيتُ. ثمّ قلتُ له ليلةً أخرى : أبصِرْ غنمي حتّى أَسْمُرَ. ففعل. فدخلتُ، فلمّا جئتُ مكّةَ سمعتُ مثل الذي سمعتُ تلك اللّيلةَ، فسألتُ، فقيل : نكح فلانٌ فلانةً. فجلستُ

أنظر، وضرب اللّه على أذني فواللّه ما أيقظني إلّا مسُّ الشمس. فرجعتُ إلى صاحبي فقال : ما فعلتَ ؟ فقلتُ : لا شيء. ثمّ أخبرته الخبر. فواللّه ما هممتُ ولا عُدْتُ بعدها لشيء من ذلك حتّى أكرمني اللّه عزّ وجلّ بنُبُوَّته.

وثبتَ في الحديث أنّه كان لا يقف بالمُزْدَلِفَةِ ليلةَ عرفة، بل كان يقف مع النّاس بعرفاتٍ. وعن جُبيرِ بنِ مُطْعِمٍ قال : لقد رأيتُ رسول اللّه صلى الله عليه وعلى آله وهو على دين قومه ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو يقف على بعير له بعرفاتٍ من بين قومه، حتّى يدفع معهم، توفيقا من اللّه عزّ وجلّ له.

ذكرُ شُهوده عليه الصّلاة والسّلام حربَ الفِجارِ

قال ابنُ إسحاقَ : هاجت حرب الفِجارِ ورسول الله صلّى اللّه عليه وعلى آله ابنُ عشرين سنةً، وإنّما سُمّيَ يومَ الفِجارِ بما استحلَّ هذان الحَيَّانِ - كِنانَةُ وقيسُ عَيْلانَ - فيه من المحارم بينهم. وكان قائدَ قريشٍ وكِنانَةَ حربُ بنُ أمَيَّةَ بنِ عبدِ شمسٍ. وكان الظَّفَرُ في أوّل النّهار لقيسٍ على كِنانةَ، حتّى إذا كان في وسط النّهار كان الظَّفَرُ لكِنانَةَ على قيسٍ.

وقال ابنُ هشامٍ : فلمّا بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله أربعَ عَشْرَةَ سنةً أو خَمْسَ عشْرَةَ، هاجت حربُ الفِجارِ بين قريشٍ ومن معها من كِنانَةَ وبين قيسِ عَيْلانَ. وكان الذي هاجها أنّ عُروَةَ الرّحّالَ ابنَ عُتْبَةَ بنِ جعفرِ بنِ كِلابِ بنِ ربيعةَ بنِ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ بنِ معاويةَ بنِ بكرِ بنِ هَوازِنَ أجارَ لَطِيمَةً - أي تجارةً - للنُّعمان بنِ المنذرِ. فقال له البَرّاضُ بنُ قيسٍ - أحدُ بني ضَمْرَةَ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مَناةَ بنِ

كِنانَـةَ - : أ تُجيرُهـا على كِنانَـةَ ؟ قـال : نعم، وعلـى الخَلْـقِ. فخرج فيها عُرْوَةُ الرَّحّالُ وخرج البَرَّاضُ يطلبُ غَفْلَتَهُ، حتّى إذا كان بِتَيْمَنَ ذي طِلالٍ بالعاليةِ غَفَلَ عُـروةُ فـوَثَبَ عليـه البَرَّاضُ فقتله في الشّهر الحرام، فلذلك سُمِّيَ الفِجارَ.

قـال ابنُ هشـامٍ : فـأتى آتٍ قريشًـا فقـال : إنّ البَرَّاضَ قـد قتل عُرْوَةَ وهو في الشّهر الحرامِ بعُكاظٍ. فارتحلوا، وهَـوازِنُ لا تشـعر بهم، ثمّ بلغهم الخـبر فـاتبعوهم، فـأدركوهم قبـل أن يدخلوا الحَرَمَ. فاقتتلوا حتّى جاء الليلُ، فدخلوا الحرمَ فأمسكت هَوازِنُ عنهم ثمّ التقوا بعد هذا اليـومِ أيامًـا والقـومُ مُتَسـانِدونَ، على كلِّ قبيـلٍ من قـريشٍ وكِنانَـةَ رئيسٌ منهم، وعلـى كـلِّ قبيـلٍ من قيسٍ رئيسٌ منهم. وشَهِدَ رسول اللّه صلّة اللّه عليـه وعلى آلـه بعض أيّـامهم، أخرجـه أعمامُـه معهم. وقـال رسـول اللّـه صـلّى اللّه عليـه وعلى آلـه : كنتُ أُنَبِّلُ على أعمـامي. أي أرُدُّ عليهم نَبْلَ عدوّهم إذا رَمَوْهم بها.

وقال السُّهَيْليّ : كانت الفِجاراتُ في العرب أربعـةً، ذكـرهنَّ المَسعوديُّ. وآخرهنّ فِجـارُ البَرَّاضِ هـذا. وكـان القتـال فيـه في أربعة أيّامٍ ؛ يومِ شَمْطَةَ، ويومِ العَبْلاءِ، وهما عند عُكاظٍ، ويـومِ الشَّرِبِ - وهـو أعظمُهـا يومًـا - وهـو الـذي حضره رسـول اللّـه

صلّى اللّه عليه وعلى آله، وفيه قَيَّدًا - رئيسُ قريشٍ وبني كِنانَةَ، وهما حربُ بنُ أُمَيَّةَ وأخوه سفيانُ - أنفسهما لِئَلَّا يفرُّوا. وانهزمت يومئذٍ قيسٌ إلّا بني نَضْرٍ فإنّهم ثَبَتُوا. ويومِ الحُرَيْرَةِ عندَ نخلةَ. ثمّ تواعدوا من العام المقبل إلى عُكاظٍ، فلمّا تَوَافَوُا الموعدَ رَكِبَ عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ جمله ونادى : يا معشر مُضَرَ، عَلامَ تقاتلونَ ؟ فقالت له هَوازِنُ : ما تدعو إليه ؟ قال : الصُلْحُ. قالوا : وكيف ؟ قال : نَدِي قتلاكم ونَرْهَنكم رهائن عليها ونعفو عن دمائنا. قالوا : ومَنْ لنا بذلك ؟ قال : أنا. قالوا : ومَنْ أنتَ ؟ قال : عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ. فوقع الصُّلْحُ على ذلك. وبعثوا إليهم أربعين رجلا، فيهم حكيمُ بنُ حِزامٍ. فلمّا رأتْ بنو عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ الرَّهْنَ في أيديهم عَفَوْا عن دمائهم وانقضت حربُ الفِجارِ. وقد ذكر الأُمَوِيُّ حروبَ الفِجار وأيّامها واستقصاها مُطَوِّلًا، فيما رواه عن الأَثْرَمِ وهو المُغيرةُ بنُ عليٍّ عن أبي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بنِ المُثَنَّى.

فصلٌ

قال الحافظُ البَيْهَقِيُّ عن عبدِ الرّحمن بنِ عوفٍ قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : شَهِدْتُ مع عمومتي حِلْفَ المُطَيَّبِينَ، فما أُحِبُّ أن أنكُثَهُ - أو كلمةً نحوها - وأنّ لي حُمْرَ النَّعَمِ. وفي رواية قال : ما شَهِدْتُ حِلْفًا لقريشٍ إلّا حِلْفَ المُطَيَّبِينَ، وما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعَمِ وأنّي كنتُ نَقَضْتُهُ. والمُطَيَّبُونَ ؛ هاشمٌ وأُمَيَّةُ وزُهْرَةُ ومَخْزُومٌ. وزعم بعض أهل السِّيَرِ أنّه أرادَ حِلْفَ الفُضولِ، وأنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله لم يُدْرِكْ حِلْفَ المُطَيَّبِينَ. وهو أنّ قريشا تحالفوا بعد موت قُصَيّ وتنازعوا في الذي كان جعله قُصَيٌّ لابنه عبدِ الدّار من السِّقَايَةِ والرِّفادَةِ واللِّواءِ والنَّدْوَةِ والحِجابَةِ، ونازعهم فيه بنو عبدِ مَنافٍ، وقامت مع كلِّ طائفةٍ قبائلُ من قريشٍ، وتحالفوا على النُّصرةِ لحزبهم. فأحضر أصحابُ بني عبدِ مَنافٍ جَفْنَةً فيها طِيبٌ، فوضعوا أَيْدِيَهم فيها وتحالفوا، فلمّا قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيتِ فَسُمُّوا المُطَيَّبِينَ.

ويُروى بالسند أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال : لقد شَهِدتُ في دار عبدِ اللّه بنِ جُدْعانَ حِلْفًا، لو دُعيتُ به في الإسلام لَأَجَبْتُ، تحالفوا أن يردُّوا الفُضولَ على أهلها وألّا يَعُزَّ (يقهر ويغلب) ظالمٌ مظلومًا. قالوا : وكان حلفُ الفُضولِ قبلَ المَبْعَثِ بعشرينَ سنةً في شهر ذي القِعْدَةِ، وكا بعد حربِ الفِجارِ بأربعةِ أشهر، وذلك لأنّ الفِجارَ كان في شعبانَ من هذه السّنَةِ. وكان حِلْفُ الفُضولِ أكرمَ حِلْفٍ سُمِعَ به وأشرفَهُ في العرب، وكان أوّلَ من تكلّم به ودعا إليه الزُّبيرُ بنُ عبد المُطَّلبِ، وكان سببُه أنّ رجلا من زُبَيْدٍ قَدِمَ مَكَّةَ ببضاعةٍ فاشتراها منه العاصُ بنُ وائلٍ، فحَبَسَ عنه حَقَّهُ. فاستدعى الزُّبَيْدِيُّ الأحلافَ ؛ عبدَ الدّارِ ومخزومًا وجُمَحَ وسَهْمًا وعَدِيَّ بنَ كعبٍ، فأبَوْا أن يُعينوا على العاصِ بنِ وائلٍ، وزَبَروهُ - أي انتهروه - فلمّا رأى الزُّبَيْدِيُّ الشرَّ أَوْفَى على أبي قُبَيْسٍ عند طلوع الشمس - وقريشٌ في أنديتها حولَ الكعبةِ - فنادى بأعلى صوته وقال شعرا. فقام في ذلك الزُّبَيْرُ بنُ عبدِ المطّلب وقال : ما لهذا مَتْرَكٌ. فاجتمعت هاشمٌ وزُهْرَةُ وتَيْمُ بنُ مُرَّةَ في دار عبدِ اللّه بنِ جُدْعانَ، فصنع لهم طعامًا وتحالفوا في ذي القِعْدَةِ في شهرٍ حرامٍ، فتعاقدوا وتعاهدوا باللّه : لَيكونُنَّ يدًا واحدةً مع المظلوم على الظالم حتّى يُؤَدَّى إليه حقُّهُ

ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً وما رَسَا ثَبيرٌ وحِراءُ مكانَهما، وعلى التّأسّي في المعاش. فسمّت قريشٌ ذلك الحلف حِلْفَ الفُضولِ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضلٍ من الأمرِ. ثمّ مَشَوْا إلى العاصِ بنِ وائلٍ فانتزعوا منه سلعةَ الزُّبَيْدِيِّ، فدفعوها إليه.

وذكر قاسمُ بنُ ثابتٍ في [غريب الحديث]، أنّ رجلا من خَثْعَمَ قَدِمَ مكّةَ حاجًّا - أو مُعْتَمِرًا - ومعه ابنةٌ له يُقالُ لها القَتُولُ، من أوْضَأِ نساء العالمين. فاغتصبها منه نُبَيْهُ بنُ الحجّاجِ وغَيَّبَها عنه، فقال الخَثْعَمِيُّ : مَن يُعديني على هذا الرّجل ؟ فقيل له : عليك بحِلْفِ الفُضولِ. فوقف عند الكعبةِ ونادى يا لَحِلْفِ الفُضولِ. فإذا هم يُعْنِقونَ إليه من كلِّ جانبٍ، وقد انتَضَوْا أسيافهم يقولون : جاءك الغَوْثُ فما لك ؟ فقال : إنّ نُبَيْهًا ظلمني في بنتي وانتزعها منّي قَسْرًا. فساروا معه حتّى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم فقالوا له : أخرجِ الجاريةَ ويْحكَ ! فقد علمتَ مَن نحنُ وما تعاقدنا عليه. فقال : أفعلُ ولكنْ مَتِّعوني بها ليلةً. فقالوا : لا واللّهِ، ولا شَخْبَ لِقْحَةٍ (أصل الشُّخب ما خرج من الضرع من اللبن، وبالفتح الدّم، واللِّقحَةُ النّاقة القريبة العهد بالنتاج أو الغزيرة اللبن).

وقد قيل : إنّما سُمّيَ هذا حِلْفَ الفُضولِ لأنّه أشبهَ حِلْفًا تحالفته جُرْهُمٌ على مثل هذا مِن نصر المظلوم على ظالمه. وكان الداعي إليه ثلاثةً من أشرافهم، اسمُ كلٌّ واحدٍ منهم فَضْلٌ، وهم : الفَضْلُ بنُ فَضالَةَ والفَضْلُ بنُ وَداعَةَ، والفُضَيْلُ بنُ الحارثِ. هذا قولُ ابنِ قُتَيْبَةَ رحمه اللّه تعالى.

قال ابنُ إسحاقَ عن محمّد بنِ إبراهيمَ بنِ الحارث التَّيْمِيِّ أنّه كان بين الحُسينِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليهما السلام وبين الوليد بنِ عُتْبَةَ بنِ أبي سفيانَ - والوليد يومئذ أمير المدينة أمَّرَه عليها عمُّه معاويةُ بنُ أبي سفيانَ - مُنازَعَةٌ في مالٍ كان بينهما بِذِي المَرْوَةِ. فكان الوليد تَحامَلَ على الحُسينِ في حَقِّهِ لسُلطانِهِ، فقال له الحُسينُ : أحلفُ باللّه لَتُنْصِفَنِّي من حقِّي أو لآخذنَّ سيفي ثمّ لَأقومَنَّ في مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، ثمّ لَأَدْعُوَنَّ بحِلْفِ الفُضولِ. فقال عبدُ اللّه بنُ الزُّبيرِ - وهو عند الوليد حين قال له الحُسينُ ما قال - : وأنا أحلف باللّه لئِنْ دعا به لآخُذَنَّ سيفي ثمّ لَأَقومَنَّ معه، حتّى يُنْصَفَ من حقِّهِ أو نموتَ جميعا. وبلغت المِسْوَرَ بنَ مَخْرَمَةَ بنِ نوفلٍ الزُّهريّ، فقال مثل ذلك. وبلغت عبدَ الرّحمن بنَ عثمانَ بنِ عُبيدِ اللّه التَّيْمِيّ، فقال مثل ذلك. فلمّا بلغ ذلك

الوليدَ بنَ عُتْبَةَ أنصف الحُسَينَ عليه السلام من حقّه حتّى رَضِيَ.

فصلٌ في تزويجه عليه الصّلاة والسّلام خديجةَ بنتَ خُوَيْلِدٍ

قال ابنُ إسحاقَ : وكانت خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ امرأةً تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ، تستأجر الرجال على مالها مُضاربَةً. فلمّا بلغها عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله ما بلغها، من صدق حديثه وعِظَمِ أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه. فعرضت عليه أن يخرج لها في مالها تاجرا إلى الشام، وتعطِيَهُ أفضلَ ما تعطي غيره من التُّجَّارِ، مع غلامٍ لها يقالُ له مَيْسَرَةُ. فقبله رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله منها وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها مَيْسَرَةُ، حتّى نَزَلَا الشام. فنزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله في ظِلِّ شجرةٍ قريبا من

صومعة راهبٍ من الرُّهبانِ. فاطَّلَعَ الرّاهب إلى ميسرةَ فقال : من هذا الرّجلُ الذي نزل تحت الشّجرةِ ؟ فقال له مَيْسَرَةُ : هذا رجل من قريشٍ من أهل الحرمِ. فقال له الرّاهبُ : ما نزل تحت هذه الشّجرةِ قَطُّ إلّا نبيٌّ. ثمّ باع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله سِلْعَتَهُ - يعني تجارته - التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتريَ، ثمّ أقبل قافِلًا إلى مكّةَ ومعه مَيْسَرَةُ. فكان مَيْسَرَةُ - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتدَّ الحرُّ يرى مَلَكَيْنِ يُظِلّانِهِ من الشّمس وهو يسير على بعيره. فلمّا قَدِمَ مكّة على خديجةَ بمالها، باعتْ ما جاء به فأضْعَفَ أو قريبًا. وحدّثها مَيْسَرَةُ عن قول الرّاهب وعمّا كان يرى من إظْلالِ الملَكَينِ إياهُ، وكانت خديجةُ امرأةً حازمةً شريفةً لَبيبَةً، مع ما أراد اللّه بها مم كرامتها. فلمّا أخبرها مَيْسَرَةُ بما أخبرها، بعثت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فقالت له - فيما يزعمون - : يا ابنَ عمّ، إنّي قد وجدتُ فيك لقرابتك وسِطَتِكَ في قومك وأمانتك وحُسْنِ خُلُقِكَ وصدقِ حديثك، ثمّ عرضت نفسها عليه. وكانت أوسط نساء قريشٍ نسبًا وأعظمهنّ شرفًا وأكثرهُنَّ مالا، كلُّ قومها كان حريصا على ذلك منها لو يَقْدِرُ عليها. فلمّا قالت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمُّه حمزةُ حتّى

دخلَ على خُوَيْلِدِ بنِ أسدٍ، فخطبها إليه، فتزوجها عليه الصّلاة والسّلام.

قال ابنُ هشامٍ : فأصْدَقَها عشرينَ بكْرَةً، وكانت أوّل امـرأةٍ تزوّجها ولم يتزوّج عليها غيرَها حتّى ماتت.

قال ابنُ إسحاقَ : فولدتْ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وَلَدَه كُلَّهم إلّا إبراهيمَ : القاسم وكان به يُكْنى، والطّيّبَ والطّاهرَ، ورُقَيَّةَ وزينبَ وأمَّ كُلْثُومٍ وفاطِمَةَ. فأمّا القاسمُ والطّيّبُ والطّاهرُ فماتوا قبل البِعثَةِ، وأمّا بناتُه فأدركنَ البِعْثَةَ ودخلنَ في الإسلام وهاجرنَ معه صلّى اللّه عليه وعلى آله. قال ابنُ هشامٍ : وأمّا إبراهيمُ فمِن ماريّةَ القِبْطِيَّةِ التي أهداها له المُقَوْقِسُ صاحبُ إسكَنْدَرِيَّةَ مِنْ حَفْنٍ (قرية من قرى الصعيد) مِن كُورَةِ أنْصِنا (مدينة من نواحي الصعيد على شرقي النيل). وكان عُمُرُ رسولِ اللّهِ صلّى اللّه عليه وعلى آله حين تزوّج خديجةَ خَمْسًا وعشرينَ سنةً، وقُريشٌ تبني الكعبةَ. وكان عُمُرُ خديجةَ حين تزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله خمسًا وثلاثينَ سنةً.

ويُروى بالسّند عن أبي هُرَيْرَةَ قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: ما بعثَ اللّه نبيًّا إلّا راعيَ غنمٍ. فقال له

أصحابُه : وأنتَ يا رسول اللّه ؟ قال : وأنا رعيتُها لأهلِ مكّةَ بالقَراريطِ.

فصلٌ

قال ابنُ إسحاقَ : وقد كانتْ خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ذكرتْ لِوَرَقَةَ بنِ نوفَلِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزّى بنِ قُصَيٍّ - وكان ابنَ عمِّها وكان نصرانيّا قد تَتَبَّعَ الكتبَ وعَلِمَ من علمِ النّاسِ - ما ذكر لها غُلامُها من قولِ الرّاهبِ وما كان يرى منه إذ كان المَلَكانِ يُظِلّانِه، فقال ورقةُ : لئِنْ كان هذا حقًّا يا خديجةُ إنّ محمّدًا لَنَبِيُّ هذه الأُمَّةِ، قد عَرَفتُ أنّه كائنٌ لهذه الأُمَّةِ نبيٌّ يُنْتَظَرْ هذا زمانُه.

فصلٌ في تجديد قريشٍ بناءَ الكعبَةِ قبلَ المَبْعثِ بخمسِ سنينَ

ظاهرُ القرآنِ يقتضي أنّ إبراهيمَ عليه السلامُ أوّلُ من بنى الكعبةَ مُبْتَدِئًا وأوّلُ من أسّسها، وكانت بُقعتُها مُعَظَّمَةً قبلَ ذلك مُعْتَنًى بها مُشَرَّفَةً في سائر الأعصار والأوقات. قال اللّه تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾. وثبت في الصحيحين عن أبي ذَرٍّ قال : قلتُ : يا رسول اللّه أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أوّلُ ؟ قال : المسجدُ الحرامُ. قلتُ : ثمّ أيٌّ ؟ قال : المسجد الأقصى. قلتُ : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنةً. والمسجدُ الأقصى أسّسهُ إسرائيلُ، وهو يعقوبُ، عليه السلام.

وفي الصّحيحين : إنّ هذا البلد حرّمه اللّه يومَ خلق السماواتِ والأرضَ، فهو حرامٌ بحُرمَةِ اللّه إلى يوم القيامة.

ويُروى بالسّند عن عبد اللّه بنِ عَمْرِو بن العاصِ قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: بعثَ اللّه جبريلَ إلى ءادم وحَوّاءَ فقال لهما : اِبْنِيَا لي بيتًا. فَخَطَّ لهما جبريلُ، فجعل ءادمُ يحفِر وحوّاءُ تنقُلُ حتّى أجابه الماءُ، نودِيَ من تحته : حَسْبُكَ يا ءادمُ. فلمّا بنياه أوحى اللّه تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له : أنتَ أوّلُ النّاس وهذا أوّلُ بيتٍ. ثمّ تناسخت القرون حتّى حَجَّهُ نوحٌ، ثمّ تناسخت القرونُ حتّى رفع إبراهيم، عليهم السلامُ، القواعدَ منه.

وقال يونُسُ بنُ بُكَيْرٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبير أنّه قال : ما من نبيٍّ إلّا وقد حجَّ البيتَ إلّا ما كان من هودٍ وصالحٍ.

وروى البَيْهَقِيُّ عن خالدِ بنِ عَرْعَرَةَ قال : سأل رجلٌ عليًّا عن قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ ؛ أهو أوّلُ بيتٍ بُنِيَ في الأرضِ ؟ قال : لا، ولكنّه أوّلُ بيتٍ وُضِعَ فيه البركةُ والهُدى ومقامُ إبراهيمَ ومَن دخله كان آمنا. وإن شئتَ نبّأْتُكَ كيف بناؤُهُ ؛ إنّ اللّه تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلامُ أنِ ابنِ لي بيتًا في الأرض، فضاق به ذَرْعًا، فأرسل إليه السكينةَ وهي ريحٌ خَجوجٌ (شديدة) لها رأسٌ، فاتبع أحدُهما صاحبَهُ

حتّى انتهت، ثمّ تَطَوَّقَتْ في موضع البيتِ تَطَوُّقَ الحيّةِ. فبنى إبراهيمُ حتّى إذا بلغ مكان الحجر قال لابنه : إبْغِني حجرًا. فالتمس حجرًا حتّى أتاه به، فوجد الحجرَ الأسود قد رُكِّبَ. فقال لأبيه : من أين لك هذا ؟ قال : جاء به من لا يَتَّكِلُ على بنائك، جاء به جبريلُ من السماء فأتمّهُ. فمرّ عليه الدّهرُ فانهدم فبنته العمالقةُ، ثمّ انهدم فَبَنَتْهُ جُرْهُمٌ، ثمّ انهدم فبنته قريشٌ ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يومئذ رجلٌ شابٌّ. فلمّا أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا : يُحَكَّمُ بيننا أوّلُ رجلٍ يخرج من هذه السِّكّةِ. فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله أوّلَ من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه في مِرْطٍ (كساء من صوف أو خَزٍّ) ثمّ ترفعه جميع القبائل، ثمّ أخذه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فوضعه. فكان لا يزداد عليه الصلاة والسلام على السِّنِّ إلّا رِضًا حتّى دَعَوْهُ الأمينَ قبلَ أن ينزل عليه الوحي.

قال موسى بنُ عُقْبَةَ : وإنّما حمل قريشًا على بنائها أنّ السُّيولَ كانت تأتي من فوقها، مِن فوق الرّدمِ اذي صنعوه فَخَرَّ بِهِ، فخافوا أن يدخلَهَا الماءُ. وكان رجلٌ يقال له مُلَيْحٌ سرق طيبَ الكعبةِ فأرادوا أن يَشيدُوا بُنْيانَهَا وأن يرفعوا بابها حتّى

لا يدخلَها إلّا مَن شاؤوا، فأعدّوا لذلك نَفَقَةً وعُمّالًا، ثمّ غَدَوْا إليها ليهدموها على شَفَقٍ وحذرٍ أن يمنعهم اللّه الذي أرادوا. فكان أوّلَ رجلٍ طلعها وهدم منها شيئًا الوليد بنُ المُغِيرَةِ. فلمّا رأوا الذي فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك. فلمّا أرادوا أن يأخذوا في بُنْيانها أحضروا عُمّالهم، فلم يقدر رجلٌ منهم أن يمضيَ أمامَهُ موضعَ قَدَمٍ، فزعموا أنّهم رأوا حيّةً قد أحاطت بالبيت، رأسُها عند ذَنَبِها. فأشفقوا منها شَفَقَةً شديدةً وخَشَوْا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا في هَلَكَةٍ، وكانت الكعبة حِرْزَهم ومَنَعَتَهم من النّاس وشرفا لهم. فلمّا سُقِطَ في أيديهم والتبس عليهم أمرُهم قام فيهم المُغِيرَةُ بنُ عبدِ اللّه بنِ عَمْرِو بن مخزومٍ فذكر ما كان من نصحه لهم وأمرِه إيّاهم ؛ أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها وأن يقتسموها أرباعًا وأن لا يُدخلوا في بنائها مالًا حرامًا، وذكر أنّهم لمّا عزموا على ذلك ذهبت الحيّةُ في السماء وتَغَيَّبتْ عنهم ورأوا أنّ ذلك من اللّه عزّ وجلّ.

قال ابنُ إسحاقَ : تجزّأت قريشٌ الكعبةَ، فكان شِقُّ الباب لبني عبدِ مَنافٍ وزُهْرَةَ، وما بين الرّكن الأسود والركن اليماني لبني مخزومٍ وقبائل من قريشٍ انضمّوا إليهم، وكان ظهر الكعبة

لبني جُمَحٍ وسَهْمٍ، وكان شِقُّ الحِجْرِ لبني عبدِ الدار بن قُصَيٍّ ولبني عبد العُزَّى ولبني عَدِيِّ بنِ كَعْبٍ وهو الحَطِيمُ. وكانتْ الكعبةُ على عهد النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله ثمانيَ عَشْرَةَ ذراعا وكانت تُكسَى القَباطِيَّ (ثيابٌ بيض كانت تُصنَعُ بمصر)، ثمّ كُسِيَتْ بعدُ البُرودَ (ضربٌ من ثياب اليمن)، وأوّل من كساها الدّيباجَ الحجّاجُ بنُ يوسُفَ.

وكانوا أخرجوا منها الحِجْرَ وهو ستّةُ أذْرُعٍ أو سبعةُ أذْرُعٍ من ناحية الشام، وذلك لمّا قَصرَتْ بهم النّفقةُ، أي لم يتمكّنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم، وجعلوا للكعبة بابا واحدًا من ناحية الشّرق وجعلوه مرتفعا لئلا يدخل إليها كُلُّ أحدٍ، فيُدْخِلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا.

وقد ثبت في الصّحيحين عن عائشة رضي اللّه عنها أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال لها : ألم تَرَيْ أنّ قومكِ قَصَرَتْ بهم النّفقةُ ولولا حِدْثانُ قومكِ بكُفرٍ لنَقَضْتُ الكعبةَ وجعلتُ لها بابًا شرقيّا وبابا غربيًّا وأدخلتُ فيها الحِجْرَ. ولهذا لمّا تمكّن ابنُ الزّبيرِ بناها على ما أشار إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فجاءت في غاية البهاء والحُسنِ والسَّناءِ، كاملةً على قواعد إبراهيم الخليل عليه

السلام، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقيًّا وغربيًّا يدخل النّاس من هذا ويخرجون من الآخر. فلمّا قَتلَ الحجّاجُ ابنَ الزُّبيرِ كتب إلى عبد الملك بن مروانَ وهو الخليفة يومئذ فيما صنعه ابنُ الزُّبيرِ، واعتقدوا أنّه فعل ذلك من تِلقاءِ نفسه، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه. فعمدوا إلى الحائط الشاميّ فَحَصُّوهُ (وَقُّوهُ) وأخرجوا منه الحِجْرَ ورَصَّوا حجارته في أرض الكعبةِ، فارتفع بابُها وسدُّوا الغربيّ واستمرّ الشّرقيّ على ما كان عليه. فلمّا كان في زمن المهديِّ أو أبيه المنصورِ استشار مَالكًا في إعادتها على ما كان صنعه ابنُ الزُّبيرِ، فقال مالكٌ رحمه اللّه تعالى : إنّي أكره أن يتّخذها الملوك مَلْعَبَةً. فتركها على ما هي عليه، فهي إلى الآن كذلك.

وأمّا المسجدُ الحرامُ فأوّلُ من أخّر البيوتَ من حول الكعبة عمر بنُ الخطّابِ رضي اللّه عنه، اشتراها من أهلها وهدمها، فلمّا كان عثمانُ اشترى دورا وزادها فيه. فلمّا وَلِيَ ابنُ الزُّبيرِ أحكمَ بُنيانه وحسّن جدرانه وأكثر أبوابه، ولم يُوَسِّع شيئًا آخر. فلمّا استبدَّ بالأمر عبدُ الملك بنُ مروانَ زاد في ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبةِ فكُسِيَتِ الدِّيباجَ، وكان الذي تولّى ذلك بأمره الحجّاجُ بنُ يوسُفَ.

فصلٌ

وذكر ابنُ إسحاقَ ما كانت قريشٌ ابتدعوه في تسميتهم الحُمْسَ، وهو الشدّة في الدين والصّلابةُ، وذلك لأنّهم عظّموا الحرمَ تعظيما زائدًا بحيثُ التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلةَ عَرَفَةَ. وكانوا يقولون : نحن أبناء الحرم وقُطَّانُ بيت اللّه. فكانوا لا يقفون بعرفاتٍ مع علمهم أنّها من شعائر إبراهيم عليه السلامُ، حتّى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة، وكانوا لا يدّخرون من اللبنِ أَقِطًا ولا سَمْنًا ولا يسألون شَحْمًا وهم حُرُمٌ، ولا يدخلون بيتًا من شَعَرٍ ولا يستظلون إلّا ببيتٍ من أَدَمٍ، وكانوا يمنعون الحجيجَ والعُمَّارَ ما داموا مُحرمين أن يأكلوا إلّا من طعام قريشٍ، ولا يطوفون إلّا في ثيابِ قريشٍ، فإن لم يجد أحدٌ منهم ثوبَ أحدٍ من الحُمْسِ - وهم قريشٌ وما ولدوا ومن دخل معهم من كِنانةَ وخُزاعَةَ - طاف عُرْيانًا ولو كانت امرأةً، ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فَرْجِها. فإن تكرّم أحدٌ ممن يجد ثوبَ أحْمسِيٍّ فطاف في ثياب نفسه، فعليه إذا فرغ

من الطواف أن يُلْقِيَها فلا يُنْتَفَعُ بها بعد ذلك، وليس له ولا لغيره أن يمسّها، وكانت العربُ تُسمِّي تلك الثياب اللَّقَى.

قال ابنُ إسحاقَ : فكانوا كذلك حتّى بعث اللّه محمّدًا صلّى اللّه عليه وعلى آله وأنزل عليه القرآن ردًّا عليهم فيما ابتدعوه، فقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾. وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يقف بعرفاتٍ قبل أن يُنَزَّلَ عليه توفيقا من اللّه له.

كتاب مبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وذكرُ شيءٍ من البشارات بذلك

قال محمّد ابنُ إسحاقَ رحمه اللّه تعالى : وكانت الأحبارُ من اليهود والرهبانُ من النّصارى والكُهَّانُ من العرب قد تحدّثوا بأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قبل مبعثه لمّا تقارب زمانه. أمّا الأحبارُ من اليهود والرُّهبانُ من النّصارى فعَمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. قال اللّه تعالى في سورة الأعراف : ﴿ اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾. وقال تعالى في سورة الصّفّ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد ﴾. وقال تعالى في سورة الفتح : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ

رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ الآية الكريمة ﴾. وقال اللّه تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾. وفي صحيح البخاريّ عن ابن عبّاسٍ قال : ما بعث اللّه نبيّا إلّا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعِثَ محمّد وهو حيٌّ ليؤمنُنَّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ على أمّته الميثاق لئن بُعِثَ محمّد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه وليتّبعنّه. يُعْلَمُ من هذا أنّ جميع الأنبياء بشّروا وأمَروا باتباعه. وقد قال إبراهيمُ عليه السلام فيما دعا به لأهل مكّةَ في سورة البقرة : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ الآية الكريمة ﴾.

وقال الإمام أحمدُ رحمه اللّه تعالى عن أبي أُمَامَةَ قال : قلتُ : يا رسول اللّه ما كان بَدْءُ أمرِكَ ؟ قال : دعوةُ أبي إبراهيمَ وبُشرى عيسى، ورأت أمّي أنّه يخرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام.

أمّا في الملإِ الأعلى فقد كان أمرُه مشهورا مذكورا معلوما من قبل خلق ءادم عليه الصلاة والسلام، كما قال الإمام أحمدُ عن العِرْباضِ بنِ ساريةَ قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: إنّي عبدُ اللّه خاتم النّبيّين، وإن ءادم لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِه، وسأُنَبِّئُكم بأوّل ذلك، دعوة أبي إبراهيمَ وبِشارةُ عيسى بي، ورؤيا أمّي التي رأت، وكذلك أمّهات النّبيينَ تَرَيْنَ. وعن مَيْسَرَةَ الفَجْرِ قال : قلتُ : يا رسول اللّه متى كنتَ نبيّا ؟ قال : وآدم بين الرّوح والجسد.

ورُوِيَ عن البَغَوِيّ عن أبي هريرةَ مرفوعا في قول اللّه تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ الآية الكريمة ﴾، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : كنتُ أوّل النّبيّين في الخلق وآخرهم في البعثِ.

قال محمّد بنُ إسحاقَ : حدّثني يعقوبُ بنُ عُتبةَ بنِ المغيرةِ بنِ الأخنسِ أنّه حُدِّثَ أنّ أوّل العرب فَزِعَ للرّمي بالنّجوم حين رُميَ بها هذا الحيُّ من ثَقِيفٍ، وأنّهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ أحدِ بني عِلاجٍ، وكان أدهى العرب وأنكرها رأيا، فقالوا له : يا عَمْرُو، ألم تَرَ ما حدث في

السماء من القذف بهذه النّجوم ؟ قال : بلى، فانظروا، فإن كانت معالمُ النّجومِ التي يُهْتدَى بها في البرِّ والبحر ويُعْرفُ بها الأنواءُ من الصيف والشتاء لِما يُصْلِحُ النّاس في معايشهم هي التي يُرمى بها فهو واللّه طَيُّ الدنيا وهلاكُ هذا الخلقِ، وإن كانت نجوما غيرها وهي ثابتَةٌ على حالها فهذا لأمر أراد اللّه به هذا الخلقَ فانظروا ما هو !

فصلٌ

قال ابنُ إسحاقَ : وحدّثني عاصمُ بنُ عمر بنِ قتادة عن رجال من قومه قالوا : إنّ مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة اللّه وهُداهُ لنا - ما كُنّا نسمع من رجالٍ من يهودَ، وكنّا أهل شركٍ أصحابَ أوثانٍ وكانوا أهلَ كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا يزالُ بيننا وبينهم شرورٌ فإذا نِلْنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنّه قد تقارب زمانُ نبيٍّ يُبْعَثُ الآن نقتُلُكم معه قتل عادٍ وإرَمَ. فَكُنَّا كثيرا ما نسمع ذلك منهم، فلمّا بعث

اللّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله أجبناه حين دعانا إلى اللّه وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنّا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية من سورة البقرة : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وقال ابنُ إسحاقَ عن سَلَمَةَ بنِ سَلامَةَ بنِ وَقْشٍ - وكان من أهل بدرٍ - قال : كان لنا جار من يهودَ في بني عبدِ الأشْهَلِ. فخرج علينا يوما من بيته حتّى وقف على بني عبدِ الأشْهَلِ. قال سَلَمَةُ : وأنا يومئذٍ أحْدَثُ من فيه سِنًّا عليَّ بُرْدَةٌ لي مُضْطَجِعٌ فيها بفناء أهلي، فذكر القيامةَ والبعثَ والحسابَ والميزان والجنّة والنّار. فقال ذلك لقومٍ أهلِ شركٍ أصحابِ أوثانٍ لا يرون أنّ بعثا كائنٌ بعد الموت، فقالوا له : وَيْحَكَ يا فلانُ، أَوَ ترى هذا كائنًا، أنّ النّاس يُبْعَثونَ بعد موتهم إلى دار فيها جنّةٌ ونارٌ يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم، والذي يُحْلَفُ به. ويَوَدُّ أنّ له بِحَظِّهِ من تلك النّار أعظمَ تَنُّورٍ في الدار يُحْمونَهُ ثمّ يُدْخِلونَهُ إيّاهُ فيُطَيِّنونَ عليه بأن ينجو من تلك النّار غدا. قالوا له : ويحك يا فلانُ، فما آية ذلك ؟ قال :

نبيٌّ مبعوثٌ من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكّةَ واليمنِ. قالوا : ومتى تُراهُ ؟ فنظرَ إليَّ وأنا من أحدثهم سِنًّا، فقال : إن يَسْتَنْفِدْ هذا الغلامُ عمره يُدْرِكْهُ. قال سَلَمَةُ : فواللّه ما ذهب اللّيل والنّهار حتّى بعث اللّهُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وهو حيٌّ بين أَظْهُرِنا، فآمنّا به وكفر به بغيا وحسدا. فقلنا له : ويحك يا فلان، ألستَ بالذي قلتَ لنا فيه ما قلتَ ؟ قال : بلى، ولكن ليس به. وفي الدّلائل لأبي نُعَيْم أن هذا اليهوديَّ يقال له يُوشَعُ.

قال ابنُ إسحاقَ : حدّثني عاصمُ بنُ عمرَ بن قتادةَ عن شيخٍ من بني قُرَيْظَةَ قال لي : هل تدري عَمَّ كان إسلامُ ثَعْلَبَةَ بنِ سَعْيَةَ وأَسَيْدِ بنِ سَعْيَةَ وأسدِ بنِ عُبَيْدٍ، نَفَرٍ من بني هَدْلٍ إخوةِ بني قُرَيْظَةَ، كانوا معهم في جاهليّتهم ثمّ كانوا سادتهم في الإسلام ؟ قلت : لا. قال : فإنّ رجلا من اليهود من أرض الشّام يقال له ابنُ الهَيِّبانِ، قَدِمَ علينا قبل الإسلام بسنينَ فحَلَّ بين أظهُرِنا، لا واللّه ما رأينا رجلا قطُّ لا يُصلِّي الخمس أفضلَ منه. فأقام عندنا، فكنّا إذا قَحَطَ عنّا المطرُ قلنا له : اخرجْ يا ابنَ الهَيِّبانِ فاستسق لنا. فيقول : لا واللّه حتّى تُقَدِّموا بين يدي مَخْرَجِكم صدقةً. فنقول له : كم ؟ فيقول :

صاعًا من تمرٍ أو مُدَّيْنِ من شعيرٍ. فنُخْرِجُها، ثمّ يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتِنا، فيستسقي لنا، فواللّه ما يبرح مجلسه حتّى يَمُرَّ السحابُ ونُسْقَى. قد فعل ذلك غيرَ مرّةٍ ولا مرّتين ولا ثلاثٍ. ثمّ حضرتْهُ الوفاةُ عندنا، فلمّا عرف أنّه ميّتٌ قال : يا معشر يهودَ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا : أنت أعلمُ. قال : فإنّي قد قَدِمْتُ هذه البلدةَ أَتَوَكَّفُ خروجَ نبيٍّ قد أظلّ زمانُهُ، هذه البلدةُ مُهاجَرُهُ، فكنتُ أرجو أن يُبْعَثَ فأَتَّبِعَهُ، وقد أظلَّكم زمانُه فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهودَ فإنّه يُبْعَثُ بسَفْكِ الدّماء وسَبْيِ الذّراري ممن خالفه، فلا يمنعنّكم ذلك منه. فلمّا بُعِثَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وحاصر بني قُرَيْظَةَ قال هؤلاء الفتيةُ - وكانوا شبابا أحداثا - : يا بني قُرَيْظَةَ، واللّه إنّه للنّبيّ الذي كان عَهِدَ إليكم فيه ابنُ الهَيّبانِ. قالوا : ليس به. قالوا : بلى واللّهِ إنَّه لهو بصفته. فنزلوا فأسلموا، فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

وقد روى أبو نُعَيْمٍ في [الدّلائل] عن عبد اللّه بنِ سلامٍ قال : إنّ اللّه لمّا أراد هُدى زيدِ بنِ سُعْنَةَ، قال زيدٌ : لم يَبْقَ من علامات النّبوّةِ شيءٌ إلّا وقد عرفتها في وجه محمّدٍ صلّى

اللّه عليه وعلى آله حين نظرتُ إليه، إلّا اثنتين لم أخْبُرْهما منه، يسبقُ حِلْمُه جَهْلَهُ ولا يزيد شدّةُ الجهل عليه إلّا حِلْمًا. فكنتُ أتلطّفُ له لأن أخالطه فأعرفَ حِلْمَهُ وجهلَهُ. فذكر قصّة إسلافه للنّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله مالا في تَمْرٍ. قال : فلمّا حلّ الأجلُ أتيتُه، فأخذتُ بمجامع قميصه وردائه وهو في جِنازةٍ مع أصحابه ونظرتُ إليه بوجه غليظ وقلتُ : يا محمّدُ ألا تقضيني ديني ؟ فواللّه ما عَلِمْتُكم بني عبدِ المطّلب لَمُطْلٌ. قال : فنظر إليّ عُمَرُ وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم قال : يا عدوّ اللّه، أتقول لرسول اللّه ما أسمع وتفعل ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحقّ لولا ما أُحاذِرُ فَوْتَهُ لضربتُ بسيفي رأسَكَ. ورسول اللّه ينظر إلى عُمَرَ في سكون وتُؤَدَةٍ وتبسُّمٍ ثمّ قال : أنا وهو كنّا أحْوَجَ إلى غير هذا منك يا عمرُ، أن تأمرني بحُسْنِ الأداء وتأمرهُ بحُسْنِ التِّباعَةِ، اِذهب به يا عمرُ فاقضِهِ حقّهُ وزِدْ عشرين صاعًا من تمرٍ. فأسلم زيدُ بنُ سُعْنَةَ رضي اللّه عنه وشهد بقيّة المشاهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، وتوفّي عامَ تَبوكَ رحمه اللّه تعالى.

ثمّ ذكر ابنُ إسحاقَ رحمه اللّه تعالى إسلامَ سَلْمانَ الفارسيِّ رضي اللّهُ عنه وأرضاه، عن عبد اللّه بنِ عبّاسٍ

قال : حدّثني سلمانُ الفارسيُّ من فيه قال : كنتُ رجلا فارسيًّا من أهل أصبهانَ من أهل قريةٍ يقال لها حَيٌّ. وكان أبي دِهْقانَ قريته، وكنتُ أَحَبَّ خلقِ اللّه إليه لم يزل حُبُّهُ إيّاي حتّى حبسني في بيته كما تُحْبَسُ الجاريةُ، واجتهدتُ في المجوسيّة حتّى كنتُ قَطِنَ (خازنها وخادمها) النّار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعةً. وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمةٌ. فشُغِلَ في بُنْيانٍ له يوما، فقال لي : يا بنيَّ، إنّي قد شُغِلتُ في بُنْياني هذا اليومَ عن ضيعتي فاذهب إليها فاطّلِعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثمّ قال لي : ولا تَحْتَبِسْ عنّي فإنّك إن احتبستَ عنّي كنتَ أهمّ إليّ من ضيعتي وشَغَلْتني عن كلّ شيء من أمري. فخرجتُ أريدُ ضيعته التي بعثني إليها، فمررتُ بكنيسةٍ من كنائس النّصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلّون، وكنت لا أدري ما أمرُ النّاسِ لِحَبْسِ أبي إيّاي في بيته. فلمّا سمعتُ أصواتهم دخلتُ عليهم أنظرُ ما يصنعون، فلمّا رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبتُ في أمرهم وقلتُ : هذا واللّه خيرٌ من الدّين الذي نحن عليه. فواللّه ما بَرِحْتُ حتّى غربتِ الشّمسُ وتركتُ ضيعةَ أبي فَلَمْ آتِها. ثمّ قلتُ لهم : أين أصلُ هذا الدّينِ ؟ قالوا : بالشّامِ. فرجعتُ إلى أبي وقد بعثَ في طلبي وشغلتُه عن أمره كُلِّهِ، فلمّا جئتُه قال : أي بُنَيَّ، أين كنتَ، ألم أكُنْ عَهِدْتُ

إليك ما عَهِدتُ ؟ قلتُ : يا أبَتِ، مررتُ بأناس يصلّون في كنيسةٍ لهم فأعجبني ما رأيتُ من دينهم، فواللّه مازلتُ عندهم حتّى غربت الشّمسُ. قال : أي بُنَيَّ، ليس في ذلك الدّين خيرٌ، دينُك ودينُ آباءك خيرٌ منه. قلتُ : كلّا واللّه، إنّه لخيرٌ من ديننا. فخافني، فجعل في رجلي قَيْدًا ثمّ حبسني في بيتِه. وبعثتُ إلى النّصارى فقلتُ لهم : إذا قَدِمَ عليكم ركبٌ من الشّام فأخبروني بهم. فقَدِمَ رَكْبٌ من الشّام تُجّارٌ من النّصارى، فأخبروني بهم، فقلت لهم : إذا قَضَوْا حوائجهم وأرادوا الرَّجْعَةَ إلى بلادهم فآذنوني. فلمّا أرادوا الرَّجْعَةَ إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيتُ الحديدَ من رجلي ثمّ خرجتُ معهم حتّى قَدِمْتُ الشّامَ. فلمّا قَدِمْتُها قلتُ : مَن أفضلُ أهل هذا الدّين عِلمًا ؟ قالوا : الأُسْقُفُّ في الكنيسة. فجِئتُهُ فقلتُ له : إنّي قد رغبتُ في هذا الدين وأحببتُ أن أكون معك وأخدُمَكَ في كنيستك وأتعلَّمَ منك وأصلّي معك. قال : اُدخُل. فدخلتُ معه، فكان رجلَ سَوْءٍ يأمرُهم بالصّدقة ويُرَغِّبُهم فيها فإذا جمعوا له شيئًا منها كَنَزَهُ لنفسه ولم يُعْطِه المساكينَ حتّى جمع سَبْعَ قِلالٍ من ذهبٍ ووَرِقٍ. وأبغضتُهُ بُغْضًا شديدًا لما رأيتُه يصنَعُ. ثمّ مات واجتمعت له النّصارى ليدفنوه، فقلتُ لهم : إنّ هذا كان رجلَ سَوْءٍ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها

لنفسه ولم يُعْطِ المساكينَ منها شيئا. فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟ قلتُ لهم : أنا أدلّكم على كنزه. قالوا : فدُلَّنا عليه. فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قِلالٍ مملوءةً ذهبا ووَرِقًا. فلمّا رأوها قالوا : لا ندفنه أبدا. فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه. فما رأيتُ رجلا لا يصلّي الخَمْسَ أرى أنّه أفضل منه وأزهدُ في الدنيا ولا أرغبُ في الآخرة ولا أدْأَبُ ليلا ونهارا. فأحببتُه حبًّا لم أحِبَّ شيئا قبله، فأقمتُ معه زمانا ثمّ حضرتْهُ الوفاةُ فقلتُ له : إنّي قد كنتُ معك وأحببتُك حُبًّا لم أحبَّهُ شيئا قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر اللّه تعالى فإلى من توصي بي وبِمَ تأمرني به ؟ قال : أي بُنَيَّ، واللّه ما أعلمُ اليومَ أحدًا على ما كنتُ عليه، لقد هلك النّاسُ وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلّا رجلا بالمَوْصِلِ وهو فلان وهو على ما كنتُ عليه فَالْحَقْ به. فلمّا مات وغُيِّبَ لَحِقْتُ بصاحب المَوْصِل، فقلتُ : يا فلانُ، إنّ فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنّك على أمره. فقال لي : أَقِمْ عندي. فأقمتُ عنده فوجدته خيرَ رجلٍ وعلى أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلمّا حضرته الوفاة قلتُ له : يا فلانُ، إنّ فلانا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حَضَرَكَ من أمر اللّه ما ترى، فإلى مَن توصي بي وبِمَ تأمرني ؟ قال : يا

بُنَيَّ، واللّه ما أعلمُ رجلا على ما كنّا عليه إلّا رجلا بنَصِيبِينَ وهو فلانٌ فالحق به. فلمّا ماتَ وغُيِّبَ لحقتُ بصاحب نَصِيبِينَ فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبايَ، فقال : أَقِمْ عندي. فأقمت عنده فوجدتُه على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجلٍ، فواللّه ما لَبِثَ أن نزل به الموتُ، فلمّا حُضِرَ قلتُ له : يا فلانُ، إنّ فلانا كان أوصى بي إلى فلانٍ ثمّ أوصى بي فلان إليك فإلى مَن توصي بي وبِمَ تأمرني ؟ قال : يا بُنَيَّ، واللّه ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلّا رجلا بعَمُّورِيَّةَ من أرض الرّومِ فإنّه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببتَ فَأْتِهِ فإنّه على أمرنا. فلمّا مات وغُيِّبَ لحقتُ بصاحب عَمُّورِيَّةَ، فأخبرتُه خبري فقال : أقِمْ عندي. فأقمتُ عندَ خير رجلٍ على هَدْيِ أصحابه وأمرهم. واكتسبتُ حتّى كانت لي بقراتٌ وغُنَيْمَةٌ، ثمّ نزل به أمر اللّه، فلمّا حُضِرَ قلتُ له : يا فلانُ، إني كنتُ مع فلانٍ فأوصى بي إلى فلانٍ ثمّ أوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ ثمّ أوصى بي فلانٌ إليك، فإلى من توصي بي وَبِمَ تأمرني ؟ قال : أي بُنَيَّ، واللّه ما أعلمُه أصبح أحدٌ على مثل ما كنّا عليه من النّاس آمرُكَ أن تأتيه، ولكنّه قد أظلّ زمانُ نبيّ وهو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مُهاجَرُهُ إلى أرضٍ بين حَرَّتينِ بينهما نخلٌ به علامات لا تخفى، يأكل

الهديّة ولا يأكل الصّدقة، بين كتفيه خاتم النّبوّةِ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثمّ مات وغُيِّبَ ومكثتُ بعَمُّورِيَّةَ ما شاء اللّه أن أمكث، ثمّ مرَّ بي نَفَرٌ من كلبٍ تجّارٌ فقلتُ لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطِيكم بقراتي هذه وغُنَيْمَتِي هذه. قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملوني معهم، حتّى إذا بلغوا واديَ القُرى ظلموني فباعوني من رجل يهوديٍّ عبدًا، فكنتُ معه ورأيتُ النّخل فرجوتُ أن يكون البلدُ الذي وصف لي صاحبي ولم يَحِقَّ (لم يَثْبُتْ) في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قَدِمَ عليه ابنُ عمٍّ له من بني قُرَيْظَةَ من المدينة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة. فواللّه ماهو إلّا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمتُ بها. وبُعِثَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فأقام بمكّة ما أقام لا أسمع له بذِكْرٍ مِمّا أنا فيه من شُغْلِ الرِّقِّ، ثمّ هاجر إلى المدينة، فواللّه إنّي لفي رأس عَذْقٍ لسيّدي أعمل فيه بعض العمل وسيّدي جالسٌ تحتي إذ أقبل ابنُ عمّ له حتّى وقف عليه فقال: يا فلانُ، قاتلَ اللّهُ بني قَيْلَةَ (الأوسُ والخَزْرجُ) واللّه إنّهم الآن لمجتمعون بقِباءَ على رجلٍ قَدِمَ عليهم من مكّةَ يزعمون أنّه نبيّ. فلمّا سمعتها أخذتني العُرَواءُ (الرّعدةُ من البرد والانتفاض، فإن كان مع ذلك عرق فهي الرُّحَضاءُ) حتّى ظننتُ أنّي ساقطٌ على

سيّدي. فنزلتُ عن النّخلةِ فجعلتُ أقول لابن عمّه : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ فغضب سيّدي فلكمني لكمةً شديدةً، ثمّ قال : ما لك ولهذا ؟ أقبِل على عملك. قلتُ : لا شيء إنّما أردتُ أن أستثبتَهُ عمّا قال. وقد كان عندي شيء قد جمعتُه، فلمّا أمسيتُ أخذتُه ثمّ ذهبتُ به إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وهو بقِباءَ فدخلتُ عليه فقلتُ لهو: إنّه بلغني أنّك رجلٌ صالحٌ ومعك أصحابٌ لك غرباء ذوو حاجةٍ وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. فقرَّبْته إليه فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله لأصحابه : كُلُوا. وأمسكَ يده فلم يأكُلْ، فقلتُ في نفسي : هذه واحدة. ثمّ انصرفتُ عنه، فجمعتُ شيئًا. وتحوّل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إلى المدينة ثمّ جئتُه فقلتُ له : إنّي قد رأيتُك لا تأكلُ الصَّدقةَ وهذه هديّةٌ أكرمتُكَ بها. فأكل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله منها وأمرَ أصحابَه فأكلوا معه. فقلتُ في نفسي : هاتان ثِنْتَانِ. ثمّ جئتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وهو ببَقيعِ الغَرْقَدِ قد تَبِعَ جِنازةَ رجلٍ من أصحابه، وعليَّ شَمْلَتَانِ لي، وهو جالس في أصحابه فسلّمتُ عليه، ثمّ استدبرته أنظُرُ إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلمّا رآني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله

استدبرته عرف أنّي أَسْتَثْبِتُ في شيء وُصِفَ لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفتُه. فأكبَبْتُ عليه أُقَبِّلُهُ وأبكي. فقال لي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : تَحَوَّلْ. فتحوَّلتُ بين يديه، فقصصتُ عليه حديثي كما حدَّثْتُكَ يا ابنَ عبّاسٍ، فأعجبَ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله أن يسمعَ ذلك أصحابُه. ثمّ شغل سلمانَ الرِّقُّ، حتّى فاته مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله بدرٌ وأُحُدٌ. ثمّ قال لي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: كاتِبْ يا سَلْمانُ. فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلةٍ أُحْيِيها له بالفقير (البئر التي تُغْرسُ فيها الفسيلةُ)، وأربعين أُوقِيَّةً. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله لأصحابه : أعينوا أخاكم. فأعانوني بالنّخل ؛ الرّجلُ بثلاثين وَدِيَّةً والرّجلُ بعشرين وَدِيَّةً، والرّجلُ بخمْسَ عشْرَةَ وَدِيَّةً والرّجل بِعَشْرٍ، يُعينُ الرّجلُ بقدر ما عنده حتّى اجتمعت لي ثلاثمائةِ وَدِيَّةٍ، فقال لي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله: اِذهبْ يا سَلْمانُ فَفَقِّرْ لها، فإذا فرغتَ فأتني أَكُنْ أنا أضعها بيدي. ففَقَّرْتُ وأعانني أصحابي حتّى إذا فرغتُ جِئْتُهُ فأخبرتُهُ، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله معي إليها. فجعلنا نُقَرِّبُ إليه الوَدِيَّ ويضعُهُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله بيده، حتّى إذا فرغنا

فوالذي نفسُ سلمانَ بيده ما ماتتْ منها وديَّةٌ واحدةٌ، فأدّيتُ النّخلَ وبقي عليّ المالُ. فأُتِيَ رسول اللّه صلّى اللّه بمثل بيضةِ الدّجاجة من ذهبٍ من بعض المعادن، فقال : ما فعل الفارسيُّ المُكاتَبُ ؟ فدُعيتُ له، فقال : خذ هذه فأدّها مما عليك يا سَلمانُ. قلتُ : وأينَ تقعُ هذه يا رسول اللّه ممّا عليَّ ؟ قال : خذها، فإنّ اللّه سيُؤدّي بها عنك. فأخذتها فوزنتُ لهم منها - والذي نفسُ سلمانَ بيده - أربعين أوقيّةً، فأوفيتهم حقَّهم وعَتَقَ سلمانُ، فشهدتُ مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله الخندقَ حُرًّا، ثمّ لم يفتني معه مشهدٌ.

فصلٌ

قال أبو نُعَيْمٍ عمن حدّثه قال : سمعتُ أبا طالب يُحَدِّثُ عن عبد المُطّلب قال : بينا أنا نائمٌ في الحِجْر إذ رأيتُ رؤيا هالتني، ففزعت منها فزعا شديدا، فأتيتُ كاهنةَ قريشٍ وعَلَيَّ مُطْرَفُ خَزٍّ (رداء أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام)، وجُمَّتِي

تضربُ مَنْكِبَيَّ. فلمّا نظرت إليّ عرفت في وجهي التّغيّر وأنا يومئذ سيّد قومي، فقالت : ما بال سيّدنا قد أتانا متغيّر اللون ؟ هل رابَهُ من حِدْثانِ الدّهر شيء ؟ فقلت لها : بلى. وكان لا يكلمها أحدٌ من النّاس حتّى يُقبِّلَ يدها اليُمنى ثمّ يضع يده على أمّ رأسها، ثمّ يذكر حاجته ولم أفعل لأنّي كبير قومي، فجلستُ فقلتُ : إنّي رأيتُ الليلةَ وأنا نائم في الحِجْرِ كأنّ شجرةً نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأيتُ نورا أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفا، ورأيتُ العرب والعجم ساجدين لها وهي تزداد كلَّ ساعةٍ عِظَمًا ونورا وارتفاعا، ساعةً تَخفى وساعةً تَزْهَرُ. ورأيتُ رَهْطًا من قريشٍ قد تعلّقوا بأغصانها ورأيتُ قوما من قريش يريدون قطعها، فإذا دَنَوْا منها أخّرهم شابٌّ لم أر قطُّ أحسن منه وجها ولا أطيب منه ريحا فيكسرُ أظهُرَهم ويقلع أعينهم، فرفعتُ يدي لأتناول منها نصيبًا فمنعني الشابّ، فقلتُ : لمن النّصيب ؟ فقال : النّصيبُ لهؤلاء الذين تعلّقوا بها وسبقوك إليها. فانتبهت مذعورا فَزِعًا. فرأيتُ وجه الكاهنةِ قد تغيّر، ثمّ قالت : لئن صدقتْ رؤياك ليخرجنّ من صُلبك رجلٌ يملك المشرق والمغرب، ويدين له الناس. ثمّ قال - يعني عبدَ المطّلب - لأبي طالب : لعلك تكون هذا

المولود. فكان أبو طالب يحدّث بهذا الحديث، بعدما وُلِدَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وبعدما بُعِثَ. ثمّ كانت الشّجرة أبا القاسمِ الأمينَ، فيقال لأبي طالب : ألا تؤمن ؟ فيقول : السُّبَّةُ والعارُ.

وقال أبو نُعَيْمٍ عن ابنِ عبّاسٍ قال : قال العبّاسُ : خرجتُ في تجارة إلى اليمن في ركبٍ، منهم أبو سفيانَ بنُ حربٍ، فقَدِمْتُ اليمنَ فكنتُ أصنع يوما طعاما وأنصرف بأبي سفيان وبالنَّفَرِ، ويصنع أبو سفيانَ يوما ويفعل مثل ذلك. فقال لي في يومي الذي كنتُ أصنع فيه : هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وتُرسِلَ إليَّ غداءك ؟ فقلتُ : نعم. فانصرفتُ أنا والنَّفَرُ إلى بيته وأرسلتُ إلى الغداء. فلمّا تغدّى القومُ قاموا واحتبسني، فقال : هل علمتَ يا أبا الفضل أنّ ابنَ أخيك يزعم أنّه رسول اللّه ؟ فقلتُ : أيَّ بني أخي ؟ فقال أبو سفيانَ : إيّاي تكتم ؟ وأيُّ بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلّا رجل واحد ؟ قلتُ : وأيُّهم على ذلك ؟ قال : هو محمّد بنُ عبد اللّه. فقلتُ : قد فعل ؟ قال : بلى، قد فعل. وأخرج كتابا من ابنه حنظلةَ بنِ أبي سفيانَ، فيه : أُخْبِرُكَ أنّ محمّدًا قام بالأبطَحِ فقال : أنا رسول اللّه، أدعوكم إلى اللّه عزّ وجلّ.

فقال العبّاسُ : قلتُ : لعلّه يا أبا حَنظَلَةَ صادقٌ. فقال : مهلا يا أبا الفضل، فواللّه ما أحِبُّ أن يقول مثل هذا، إنّي لأخشى أن يكون عليَّ ضَيْرٌ من هذا الحديث يا بني عبد المطّلب، إنّه واللّه ما برِحَتْ قريشٌ تزعم أنّ لكم هَنَةً وهَنَةً، كلٌّ واحدة منها غايةٌ، لنَشَدْتُكَ يا أبا الفضل هل سمعتَ ذلك ؟ قلتُ : نعم، قد سمعتُ. قال : فهذه واللّه شُؤْمَتُكم. قلتُ : فلعلّها يُمْنَتُنَا. فما كان بعد ذلك إلّا ليالٍ حتّى قَدِمَ عبدُ اللّه بنُ حُذافَةَ بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك في مجالس اليمن، وكان أبو سفيان يجلس مجلسا باليمن يتحدّث فيه حَبْرٌ من أحبار اليهود، فقال له اليهوديُّ : ما هذا الخبرُ ؟ بلغني أنّ فيكم عمَّ هذا الرّجل الذي قال ما قال ؟ قال أبو سفيانَ : صدقوا، وأنا عمُّهُ. فقال اليهوديُّ : أخو أبيه ؟ قال : نعم. قال : فحَدِّثْني عنه. قال : لا تسألني، ما أُحِبُّ أن يدّعي هذا الأمر أبدا، وما أُحِبُّ أن أعيبه وغيرُه خيرٌ منه. فرأى اليهوديُّ أنّه يُغَمِّضُ عليه ولا يحبُّ أن يعيبه، فقال اليهوديُّ : ليس به، لا بأس على اليهود، وتوراةِ موسى. قال العبّاسُ : فناداني الحَبْرُ فجئتُ، فخرجتُ حتّى جلستُ ذلك المجلس من الغدِ وفيه أبو سفيانَ بنُ حربٍ والحَبْرُ، فقلتُ للحبر : بلغني أنّك سألتَ ابنَ عمّي عن رجل منّا زعم أنّه رسول اللّه، فأخبرك أنه عمُّه وليس بعمِّه ولكن ابنَ

عمِّهِ، وأنا عمُّه أخو أبيه. قال : أخو أبيه ؟ قلتُ : أخو أبيه. فأقبل على أبي سفيانَ، فقال : صدق ؟ قال : نعم، صدق. فقلتُ : سَلْني فإن كذبتُ فَلْيَرُدَّهُ عليَّ. فأقبل عليَّ فقال : نَشَدْتُكَ، هل كان لابنِ أخيك صَبْوَةٌ أو سَفَهَةٌ ؟ قلتُ : لا وإله عبد المطّلب، ولا كَذَبَ ولا خانَ، وإن كان اسمُه عند قريشٍ الأمينَ. قال : فهل كَتَبَ بيده ؟ قال العبّاسُ : فظننتُ أنّه خيرٌ له أن يكتب بيده، فأردتُ أن أقولها ثمّ ذكرتُ مكان أبي سفيانَ أنّه مُكَذِّبي ورادٌّ عليَّ، فقلتُ : لا يكتب. فوثب الحَبْرُ وترك رداءه وقال : ذُبِحَتْ يهودُ، وقُتِلَتْ يهودُ. قال العبّاسُ : فلمّا رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيانَ : يا أبا الفضل، إنّ اليهود تفزع من ابنِ أخيك. قلتُ : قد رأيتَ ما رأيتَ، فهل لك يا أبا سفيانَ أن تؤمن به، فإن كان حقًّا كنتَ قد سبقتَ، وإن كان باطلا فمعك غيرُكَ من أكفائك. قال : لا أؤمن به حتّى أرى الخيلَ في كَدَاءٍ (جبل بمكّة). قلتُ : ما تقول ؟ قال : كلمةٌ جاءت على فمي، إلّا أنّي أعلمُ أنّ اللّه لا يترك خيلا تطلع من كَدَاءٍ. قال العبّاسُ : فلمّا استفتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله مكّةَ، ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كَدَاءٍ، قلتُ : يا أبا سفيانَ، تذكرُ الكلمةَ ؟ قال: إي واللّه، إنّي لذاكرُها، فالحمدُ لله الذي هداني للإسلام.

قصّةُ عَمْرِو بنِ مُرَّةَ الجُهَنِيِّ

قال الطّبرانيُّ عن عَمْرِو بنِ مُرَّةَ الجهنِيّ قال : خرجتُ حاجًّا في جماعةٍ من قومي في الجاهليّةِ، فرأيتُ في نومي وأنا بمكّةَ نورا ساطعا من الكعبة حتّى وصل إلى جبل يثرب وأشعَرِ جُهَيْنَةَ (جبل)، فسمعتُ صوتا بين النور وهو يقول : انقشعت الظّلماء وسطع الضياء وبُعِثِ خاتم الأنبياء. ثمّ أضاء إضاءةً أخرى حتّى نظرتُ إلى قصور الحِيرَةِ وأبيضِ المدائن (قصر للأكاسرة)، وسمعتُ صوتا من النّور وهو يقول : ظهر الإسلامُ وكُسِّرتِ الأصنام ووُصِلتَ الأرحام. فانتبهتُ فَزِعًا، فقلتُ لقومي : واللّه لَيَحْدُثنَّ لهذا الحيِّ من قريشٍ حدثٌ. وأخبرتهم بما رأيتُ، فلمّا انتهينا إلى بلادنا جاءني رجلٌ فقال : قدْ بُعِثَ أحمدُ. فأتيتُه فأخبرتُه بما رأيتُ فقال : يا عَمْرُو بنَ مَرَّةَ، أنا النبيُّ المرسل إلى العباد كافّةً، أدعوهم إلى الإسلام وآمرهم بحقن الدّماء وصِلَةِ الأرحام وعبادة اللّه ورفض الأصنام، وحجِّ البيتِ وصيامِ شهر رمضان من اثنيْ عَشَرَ شهرا، فمن أجاب فله الجنّةُ ومن عصى فله النّار. فآمِن

باللّه يا عَمْرُو يُؤَمِّنْكَ اللّه من هول جهنَّمَ. فقلتُ : أشهد أن لا إله إلّا اللّهُ وأنّك رسول اللّه، آمنتُ بما جئتَ من حلالٍ وحرامٍ وإن رَغَمَ (أذلّ وكسر) ذلك كثيرًا من الأقوام. ثمّ أنشدته أبياتا قلتُها حين سمعتُ به، وكان لنا صنمٌ وكان أبي سادِنًا له فقمتُ إليه فكسرتُه ثمّ لحقتُ بالنّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله. فقال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله: مرحبًا يا عَمْرُو بنَ مُرَّةَ. فقلتُ : يا رسول اللّه، اِبعثني إلى قومي لعلّ اللّه يمُنُّ عليهم بي كما مَنَّ عليَّ بك. فبعثني إليهم وقال : عليك بالرّفقِ والقولِ السّديدِ ولا تكن فَظًّا ولا مُتَكَبِّرًا ولا حَسودًا. فذكر أنّه أتي قومَه فدعاهم إلى ما دعاه إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فأسلموا كلُّهم إلّا رجلا واحدا منهم وأنّه قد وفد بهم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فرحّب بهم وحيّاهم، وكتب لهم كتابا هذه نُسختُهُ : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، هذا كتاب من اللّه على لسان رسول اللّه، بكتابٍ صادقٍ وحقٍّ ناطقٍ، مع عَمْرِو بنِ مُرَّةَ لِجُهَيْنَةَ بنِ زيدٍ : إنّ لكم بطون الأرض وسهولها، وتِلاعَ (جمع تَلْعَة، ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء) الأوديةِ وظهورها، تزرعون نباته وتشربون صافيه على أن تُقِرُّوا بالخُمْسِ وتُصَلُّوا صلاة الخَمْسِ، وفي التَّبِيعةِ (التّبيع هو الفحل من ولد البقر والأنثى تبيعة)

والصُّرَيْمَةِ (تصغير الصِّرمة وهي القطيع من الإبل والغنم) إن اجتمعتا شاتان وإن تفرّقتا شاةٌ شاةٌ، ليس على أهل المِيرَةِ (الإبل التي تحمل الطعام ونحوه مما يُجْلَبُ للبيع) صدقةٌ ولا على الواردة لبقة.

فصلٌ

قال أبو القاسم البغويُّ عن الفَلَتَانِ بنِ عاصمٍ قال : كنتُ جالسا عند النّبيِّ صلّى اللّه عليه وعلى آله إذ شَخَصَ بصرُه إلى رجلٍ فإذا يهوديٌّ عليه قميصٌ وسراويلُ ونعلانِ. فجعل النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله يكلّمه وهو يقول : يا رسول اللّه. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : أتشهدُ أنّي رسول اللّه. قال : لا. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله : أتقرأُ التّوراةَ ؟ قال : نعم. قال : أتقرأ الإنجيلَ ؟ قال : نعم، والقرآنُ لو تشاءُ قرأتُهُ. فقال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله: فَبِمَ تقرأ التّوراة والإنجيل، أتَجِدُني نبيًّا ؟ قال : إنّا نجد

نعتك ومَخْرجَكَ، فلمّا خرجتَ رجَوَنا أن تكون فينا، فلمّا رأيناك عرفنا أنّك لستَ به. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : ولِمَ يا يهوديُّ ؟ قال : إنّا نجده مكتوبا، يدخل من أمّته سبعون ألفا بغير حسابٍ، ولا نرى معك إلا نَفَرًا يسيرا. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله : إنّ أمّتي لأكثر من سبعين ألفا وسبعين ألفا.

وقال ابنُ إسحاقَ عن أبي هريرةَ قال : أتى رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله يهودَ فقال : أخرجوا أعلَمَكم. فقالوا : عبدُ اللّه بنُ صُورِيَا. فخلا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فناشده بدينه وما أنعم اللّه به عليهم وأطعَمَهم من المَنِّ والسلوى وظللهم به من الغمام : أتعلمُني رسولَ اللّه ؟ قال : اللّهمّ نعم، وإنّ القوم ليعرفون ما أعرف وإنّ صفتك ونعتك لمُبَيَّنٌ في التّوراة، ولكنّهم حسدوك. قال : فما يمنعك أنتَ ؟ قال : أكره خِلافَ قومي، وعسى أن يتّبعوك ويُسلموا فأُسْلمَ.

وقال سَلَمَةُ بنُ الفضل عن محمّد بنِ إسحاقَ عن ابنِ عباس أنّه كان يقول : كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إلى يهودِ خَيْبَرَ : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول اللّه صاحبِ موسى وأخيه والمُصَدِّقِ بما جاء به موسى،

ألا إنّ اللّـه قـال لكم : يـا معشر يهـودَ وأهـلَ التّـوراةِ، وإنّكم تجدون ذلك في كتـابكم إنّ محمّدًا رسول اللّه. وإنّي أَنْشُدُكم باللّه وبالذي أُنزل عليكم، وأَنْشُدُكم بالذي أطعم مَن كان قبلكم من أسـباطكم المنَّ والسـلوى، وأنْشُـدُكم بالـذي أيبس البحـر لآبـاءكم حتّى أنجـاكم من فرعـون وعملـه إلّا أخبرتمونـا : هـل تجدون فيما أنـزل اللّه عليكم أن تؤمنـوا بمحمّد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كُرْهَ عليكم قد تبيّن الرّشدُ من الغَيِّ وأدعوكم إلى اللّه وإلى نبيّه.

وقد ذكر إسحاقُ بنُ بِشْرٍ في كتـاب [المبتـدأ] عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنّ بُخْتُ نَصَّرَ بعد أن خـرّب بيتَ المقدس واستذلّ بـني إسرائيل بسبع سنين، رأى في المنام رؤيا عظيمةً هالتْه، فجمع الكهنةَ والحُزاةَ وسألهم عن رؤياه تلك. فقالوا : لِيَقُصَّها الملكُ حتّى نخـبره بتأويلها. فقال : إنّي أُنْسيتُها وإن لم تخـبروني بها إلى ثلاثة أيـام قتلتكم عن آخـركم. فذهبوا خـائفين وَجِلينَ مِن وعيده. فسمع بـذلك دانيـالُ عليـه السلام وهـو في سجنه فقال للسّجّانِ : اذهب إليـه فقل لـه : إنّ هَهُنَا رجلا عنده علمُ رؤياك وتأويلُها. فذهب إليه فأعلمه بطلبه. فلمّا دخل عليـه لم يسجد له، فقال له : ما منعك من السجود لي ؟ فقال : إنّ اللّـه

آتاني علما وأمرني ألا أسجد لغيره. فقال له بُخْتُ نَصَّرُ : إنّي أحبّ الذين يوفون لأربابهم بالعهود، فأخبرني عن رؤياي. فقال له دانيالُ : رأيتَ صنما عظيما رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، أعلاه من ذهبٍ ووسطه من فضّة وأسفله من نحاس وساقاه من حديد ورجلاه من فخّارٍ، فَبَيْنَا أنت تنظر إليه قد أعجبك حُسْنُه وإحكامُ صنعته إذ قذفه اللّه بحجرٍ من السماء فوقع على قمّة رأسه حتّى طحنه واختلط ذهبُه وفضّتُه ونحاسُه وحديدُه وفخّارُه، حتّى تخيّل إليك أنّه لو اجتمع جميع الإنس والجنّ على أن يُمَيِّزوا بعضه من بعض لم يقدروا على ذلك. ونظرتَ إلى الحجر الذي قُذِفَ به يَرْبُو ويعظُم وينتشر حتّى ملأ الأرض كلّها، فصرتَ لا ترى إلّا الحجرَ والسّماءَ. فقال له بُخْتُ نَصَّرُ : صدقتَ، هذه الرّؤيا التي رأيتُها فما تأويلها ؟ فقال دانيالُ عليه السلام : أمّا الصّنمُ فأمم مختلفة في أوّل الزمان وفي وسطه وفي آخره، وأمّا الحجر الذي قُذِف به الصّنم فدينٌ يقذف اللّه به هذه الأممَ في آخرِ الزّمان فيُظْهِرُه عليها، فيبعثُ اللّه نبيّا أمّيًّا من العرب فيُدَوِّخُ به الأممَ والأديانَ كما رأيتَ الحجرَ دَوَّخَ أصنافَ الصّنمِ ويظهر على الأديانِ والأممِ كما رأيتَ الحجرَ ظهر على الأرض كلِّها، فيُمَحِّصُ اللّه به الحَقَّ ويزهقُ به الباطلَ ويهدي به أهلَ

الضّلالةِ ويعلّمُ به الأمّيّينَ ويُقَوّي به الضَّعَفَةَ ويعزُّ به الأذلَّةَ وينصرُ به المستضعفين. وذكر تمام القصّة في إطلاق بُخْتُ نَصَّرَ بني إسرائيل على يديْ دانيالَ عليه السّلامُ.

وذكر الواقديُّ بأسانيده عن المغيرةِ بنِ شُعبَةَ في قصّة وفوده على المُقَوْقِسِ ملك الإسكندريّةِ وسؤاله له عن صفات رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، قريبا من سؤال هِرَقْلَ لأبي سُفيانَ صخْرِ بنِ حربٍ.

وقال يعقوب بنُ سفيانَ عن مقاتل بنِ حيّانَ قال : أوحى اللّه عزّ وجلّ إلى عيسى ابن مريم : جُدَّ في أمري واسمع وأطع يا ابنَ الطاهرةِ البكر البتول، أنا خلقتك من غير فحل فجعلتُك آيةً للعالمين فإياي فاعبد، فبيّنْ لأهل سورانَ بالسُّرْيانيَّةِ بلِّغْ مَن بين يديك أنّي أنا الحقُّ القائم الذي لا أزولُ، صدّقوا بالنبيّ الأميّ العربيّ صاحب الجمل والمِدْرَعَةِ والعِمامةِ وهي التاجُ، والنّعلينِ والهِراوة وهي القضيبُ، الجعدُ الرأسِ، الصَّلْتُ الجبين (الواضح في سعة وبريق) المقرونُ الحاجبين، الأنْجَلُ العينين (المتسع العينين)، الأهْدَبُ الأشفار (طويلُها، والهُدْبُ هو شعر شَفْر العين)، الأدْعَجُ العينين (الذي اشتد سوادها وبياضها واتسعت)، الأقْنَى الأنف (الذي ارتفع

وسط قصبته وضاق منخراه)، الواضح الخَدَّيْنِ، الكَثُّ اللحية، عَرَقُه في وجهه كاللؤلؤِ، ريح المسك يَنْضَحُ منه، كأنّ عُنُقَهُ إبريقُ فِضَّةٍ وكأنّ الذهب يجري في تَراقيهِ (الترّاقي جمع تَرْقُوَة وهي عظمة مشرفة بين ثُغْرَة النّحر والعاتق)، له شعراتٌ من لَبَّتِهِ إلى سُرَّتِه تجري كالقضيب ليس في بطنه شعر غيرُه، شَثْنُ (الغليظ الخشن) الكفّ والقدم، إذا جاء مع النّاس غَمَرهم، وإذا مشى كأنّما يتقلّع من الصّخر ويتحدّر من صَبَبٍ.

وفي الإنجيل البِشارةُ بالبارِقْلِيط (أو الفارقليط)، والمرادُ به محمّد صلّى اللّه عليه وعلى آله.

وروى البَيْهقيُّ عمن حدثه أنه كانت عند جماعة ورقةٌ يتوارثونها في الجاهليّة حتّى جاء اللّه بالإسلام وهي عندهم. فلمّا قَدِمَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله المدينةَ ذكروها له وأَتَوْهُ بها، مكتوبٌ فيها : بسم اللّه وقولُه الحقُّ وقولُ الظّالمين في تَبابٍ، هذا الذّكرُ لأمّةٍ تأتي في آخر الزمان يُسَبِّلون أطرافَهم ويأتزرون على أوساطهم ويخوضون البُحُورُ إلى أعدائهم، فيهم صلاةٌ لو كانت في قوم نوحٍ ما أُهْلِكُوا بالطّوفان، وفي عادٍ ما أُهلكوا بالرّيح، وفي ثمودَ ما أُهْلِكوا

بالصّيحةِ. بسم اللّه وقولُه الحقُّ وقولُ الظّالمين في تَبابٍ. فعَجِبَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله لِمَا فيها.

وقال أبو بكرٍ الخَرائِطِيُّ عن خليفةَ قال : سألتُ محمّدَ بنَ عثمانَ بنِ ربيعةَ بنِ سَواةَ بنِ خَثْعَمَ بنِ سعدٍ فقلتُ : كيفَ سمّاكَ أبوك محمّدًا ؟ فقال : سألتُ أبي عمّا سألتني عنه فقال : خرجتُ رابعَ أربعةٍ من بني تميمٍ أنا منهم، وسفيانُ بنُ مُجاشِعِ بنِ دارِمٍ وأسامةُ بنُ مالكِ بنِ جُنْدُبِ بنِ العقيدِ ويزيدُ بنُ ربيعةَ بنِ كِنانَةَ بنِ حَرْبوصِ بنِ مازِنٍ ونحنُ نريدُ ابنَ جَفْنَةَ مَلِكَ غسّانَ، فلمّا شارفنا الشامَ نزلنا على غَديرٍ عليه شجراتٌ فتحدّثنا، فسمع كلامنا راهبٌ فأشرف علينا فقال : إنّ هذه لغةٌ ماهي بلغة هذه البلادِ. فقلنا : نعمْ، نحن قومٌ من مُضَرَ. قال : مِن أيِّ المُضَرِيّينَ ؟ قلنا : من خِنْدِفٍ. قال : أما إنّه سيُبعثُ وشيكا نبيٌّ خاتمُ النّبيين فسارعوا إليه وخذوا بحظّكم منه تَرْشُدُوا. فقلنا له : ما اسمه ؟ قال : اسمه محمّد. قال : فرجعنا من عند ابنِ جَفْنَةَ، فوُلِدَ لكلّ واحد منّا ابنٌ فسمّاهُ محمّدًا. يعني أنّ كلَّ واحد منهم طَمِعَ في أن يكون هذا النّبيُّ المُبَشَّرُ به ولدَه.

بابٌ في هواتف الجنّ وهو ما ألقته الجانّ على ألسنة الكُهّانِ ومسموعا من الأوثان

قال محمّد بنُ إسحاقَ عن عبد اللّه بنِ كَعْبٍ مولى عثمانَ بنِ عفّانَ أنّه حَدَّثَ أنّ عُمرَ بنَ الخطّابِ رضي اللّه عنه بينما هو جالس في النّاس في مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إذ أقبل رجلٌ من العرب، يقال هو سَوادُ بنُ قارِبٍ السَّدوسِيُّ، داخلَ المسجد يريد عمر بنَ الخطّابِ، فلمّا نظر إليه عمر قال : إنّ الرّجل لَعَلَى شِرْكِهِ ما فارقه بعدُ، أو لقد كان كاهنا في الجاهلية. فسلّم عليه الرّجل ثمّ جلس. فقال له عمر : هل أسلمتَ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين. قال : فهل كنتَ كاهنا في الجاهليّة ؟ فقال الرّجل : سبحانَ اللّه يا أمير المؤمنين، لقد خِلْتَ فِيَّ، واستقبلتني بأمرٍ ما أراك قلتَهُ لأحد من رعيّتك منذُ وُلّيتَ ما وُلّيتَ. فقال عمر : اللّهمَّ غَفْرًا، قد كنّا في الجاهليّة على شرٍّ من هذا، نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان،

حتّى أكرمنا اللّه برسوله وبالإسلام. قال : نعم واللّه يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ كاهنا في الجاهليّة. قال : فأخبرني ما جاء به صاحبك. قال : جاءني قبل الإسلام بشهرٍ أو شَيْعِهِ (المقارب له) فقال : ألم تر إلى الجنّ وإبلاسِها، وإياسِها من دينها، ولُحوقِها بالقِلاصِ (جمع قلوص وهي من الإبل الفتيّة) وأحلاسِها (جمع حِلْس وهو كِساءٌ على ظهر البعير تحت البرذعة). قال عبدُ اللّه بنُ كعبٍ : فقال عمر عند ذلك يحدّث النّاس : واللّه إنّي لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريشٍ قد ذبح له رجل من العرب عِجلا، فنحن ننتظر أن يقسم لنا منه، إذ سمعتُ من جوف العِجل صوتا ما سمعتُ صوتا قطُّ أشدّ منه، وذلك قُبَيْلَ الإسلام بشهر أو شَيْعِهِ يقول : يا ذَريح، أمرٌ نَجيح، رجلٌ يصيح، يقول : لا إله إلّا اللّه.

وقال الواقديُّ عن عاصمِ بنِ عمرَ بنِ قَتادَةَ قال : قال عثمانُ بنُ عفّانَ : خرجنا في عير إلى الشام قبل أن يُبعثَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فلمّا كنّا بأفواه الشام وبها كاهنة، فتعرضتنا فقالت : أتاني صاحبي فوقف على بابي فقلتُ له : ألا تدخل ؟ فقال : لا سبيل إلى ذلك، خرج

أحمدُ وجاء أمرٌ لا يُطاقُ. ثمّ انصرفتُ فرجعتُ إلى مكّة فوجدتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قد خرج بمكّة يدعو إلى اللّه عزّ وجلّ.

وقال الخَرائطيُّ عن العباس بنِ مِرْداسٍ أنّه كان بغَمْرَةٍ (موضع بالحجاز في طريق مكّة) في لِقاحٍ له نصف النّهار إذ طلعت عليه نعامةٌ بيضاء عليها راكبٌ عليه ثيابٌ بيضٌ مثلُ اللبن فقال : يا عبّاسُ بنَ مِرداسٍ، ألم تر أنّ السماء كَفَتْ أحراسها وأنّ الحرب تجرّعت أنفاسها وأنّ الخيلَ وضعت أحلاسها وأنّ الذي نزل بالبِرّ والتّقوى يومَ الاثنين ليلةَ الثلاثاء صاحبُ النّاقة القَصْواء. قال : فرجعتُ مرعوبا قد راعني ما رأيت وسمعت، حتّى جئت وثنا لنا يُدعى الضِّمارَ وكنّا نعبده ونُكَلَّمُ من جوفه، فكنستُ ما حوله ثمّ تمسّحتُ به وقبّلته، فإذا صائح من جوفه يقول شعرا. فخرجتُ مرعوبا حتى أتيت قومي فقصصتُ عليهم القصة وأخبرتهم الخبر، وخرجتُ في ثلاثمائة من قومي من بني حارثةَ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله وهو بالمدينة، فدخلنا المسجد. فلمّا رآني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله قال لي : يا عبّاسُ، كيف كان

إسلامك ؟ فقصصتُ عليه القصة. فسُرَّ بذلك وأسلمتُ أنا وقومي.

وقال الخرائطيُّ عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ أنّ رجلا من بني تميمٍ يقال له رافعُ بنُ عُمَيْرٍ. وكان أهدى النّاس للطريق وأسراهم بليلٍ وأهجَمَهم على هَوْلٍ، وكانت العرب تسميه لذلك دُعْموصَ العرب، لهدايته وجراءته على السير، فذكر عن بَدْءِ إسلامه، قال : إنّي لأسيرُ برملِ عالِجٍ ذات ليلةٍ إذ غلبني النّومُ، فنزلتُ عن راحلتي وأنَخْتُها وتوسّدتُ ذراعها ونمتُ، وقد تعوّذتُ قبل نومي فقلتُ : أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجِنِّ من أن أُؤْذى أو أُهاجَ. فرأيتُ في منامي رجلا شابا يرصد ناقتي وبيده حَرْبَةٌ يريد أن يضعها في نحرها، فانتبهتُ لذلك فَزِعًا فنظرت يمينا وشمالا فلم أر شيئا، فقلتُ هذا حُلْمٌ. ثمّ عدت فغفوتُ فرأيتُ في منامي مثلَ رُؤْيايَ الأولى، فانتبهتُ فَدُرْتُ حول ناقتي فلم أر شيئا وإذا نقتي تُرْعِدُ، ثمّ غفوت فرأيتُ مثل ذلك، فانتبهت فرأيتُ ناقتي تضطرب، والتفتُّ فإذا أنا برجل شابٍّ كالذي رأيتُ في المنام بيده حربةٌ ورجلٌ شيخٌ ممسك بيده يردُّه عنها وهو يقول شعرا، فأجابه الشابّ شعرا. فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش، فقال الشيخ للفتى

: قم يا ابنَ أختي فخُذْ أيها شئتَ فِداءً لناقة جاري الإنسيّ. فقام الفتى فأخذ منها ثورا وانصرف. ثمّ التفت إليّ الشيخ فقال : يا هذا، إذا نزلت واديا من الأودية فخِفْتَ هَوْلَهُ فقل : أعوذ باللّه ربّ محمّدٍ من هول هذا الوادي، ولا تَعُذْ بأحد من الجنّ فقد بَطَلَ أمرُها. قال : فقلتُ له : ومن محمّد هذا ؟ قال : نبيٌّ عربيٌّ لا شرقيٌّ ولا غربيٌّ، بُعث يوم الاثنين. قلتُ وأين مسكنه ؟ قال : يَثْرِبُ ذاتُ النّخل. قال : فركبتُ راحلتي حين بَرَقَ ليَ الصبحُ، وجَدَدْتُ السّيرَ حتّى تقحّمتُ المدينة فرآني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فحدثني بحديثي قبلَ أن أذكر له منه شيئا، ودعاني إلى الإسلام فأسلمتُ. قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ : وكُنّا نرى أنّه هو الذي أنزل اللّه فيه : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾.

وروى الخَرائِطيُّ عن عليٍّ عليه السلام قال : إذا كنتَ بوادٍ تخافُ السَّبُعَ، فقل : أعوذ بدانيالَ والجُبِّ من شرِّ الأسد.

وروى الحافظ أبو القاسم ابنُ عساكر في تاريخه عن زَمِلِ بنِ عَمْرٍو العُذْرِيّ قال : كان لبني عُذْرَةَ صنمٌ يقال له حَمامٌ وكانوا يعظمونه، وكان في بني هندِ بنِ حرامِ بنِ ضِنَّةَ بنِ عبدِ بنِ كَثِيرِ بنِ عُذْرَةَ، وكان سادِنُهُ رجلا يقال له طارقٌ، وكانوا

يَعْتِرُونَ (مِن عَتَرَ، والعتيرة ذبيحة كانوا يذبحونها لآلهتهم في الجاهلية) عنده. فلمّا ظهر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله سمعنا صوتا يقول : يا بني هند بن حرام، ظهر الحقُّ وأَوْدَى (هلك) حمام ودفعَ الشِّرْكَ الإسلامُ. ففزعنا لذلك وهالنا، فمكثنا أياما ثمّ سمعنا صوتا وهو يقول : يا طارقُ يا طارقْ، بُعِثَ النّبيُّ الصّادقْ بوحيٍ ناطقْ، صَدَعَ صادعٌ بأرضِ تِهامَة لناصريه السّلامة ولخاذليه النّدامة، هذا الوداع منّي إلى يوم القيامة. قال زَمِلٌ : فوقع الصنم لوجهه. فابتعتُ راحلةً ورحلتُ حتّى أتيتُ النّبيَّ صلّى اللّه عليه وعلى آله مع نَفَرٍ من قومي وأنشدته شعرا. فأسلمتُ وبايعتُ وأخبرناه بما سمعنا، فقال : ذاك من كلام الجنِّ. ثمّ قال : يا معشر العرب، إنّي رسول اللّه إلى الأنام كافّةً أدعوهم إلى عبادة الله وحده وأنّي رسوله وعبده وأن يحجّوا البيتَ ويصوموا شهرا من اثني عشر شهرا وهو شهر رمضان، فمن أجابني فله الجنّةُ نُزُلًا ومَن عصاني كانت النار له مُنْقَلَبًا. فأسلمنا وعَقَدَ لنا لِواءً وكتب لنا كتابا نُسْخَتُهُ : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول اللّه لِزَمِلِ بنِ عَمْرٍو ومَن أسلم معه خاصةً، إنّي بعثته إلى قومه عامِدًا فمَن أسلم ففي حزب اللّه ورسوله ومَن أبى فله أمانُ شهرين، شَهِدَ عليٌّ بنُ أبي طالب ومحمّدُ بنُ مَسْلَمَةَ الأنصاريُّ.

وقال أبو نُعَيْمٍ في كتاب [دلائل النّبوّة] عن عبد اللّه العُمَانيِّ قال : كان منّا رجلٌ يقال له مازِنُ بنُ الغَضوبَةِ يَسْدُنُ صنما بقرية يقال لها سمايا من عُمانَ، وكانت تعظمه بنو الصّامت وبنو حُطامَةَ ومَهْرَةُ وهم أخوال مازنٍ، وأمُّه زينبُ بنتُ عبد الله بنِ ربيعةَ بنِ حويص أحد بني نُمْرانَ. قال مازنٌ : فعَتَرْنَا يوما عند الصنم عَتِيرَةً، وهي الذبيحة، فسمعتُ صوتا من الصنم يقول : يا مازنُ، اسمع تُسَرّ ظهر خيرٌ وبَطَنَ شَرّ، بُعِثَ نبيٌّ من مُضَرْ بدين اللّه الأكبر، فَدَعْ نحيتًا من حجرْ تَسْلَمْ من حَرِّ سَقَرْ. قال : ففزعتُ لذلك فزعا شديدا. ثمّ عَتَرْنَا بعد أيام عتيرةً أخرى، فسمعتُ صوتا من الصنم يقول : أقبِلْ إليَّ أقْبِلْ، تسمعْ ما لا تجهَلْ، هذا نبيٌّ مُرسَلْ جاء بحقّ مُنْزَلْ، فآمِنْ به كَيْ تعدِلْ عن حرِّ نارٍ تُشْعَلْ وقودُها الجَنْدَلْ (الحجارة). قال مازن : فقلتُ : إن هذا لعجبٌ وإنّ هذا لخيرٌ يُرادُ بي. وقَدِمَ علينا رجلٌ من الحجاز فقلتُ : ما الخبرُ وراءَكَ ؟ فقال : ظهر رجل يقال له أحمد، يقول لمن أتاه : أجيبوا داعِيَ اللّه. فقلتُ هذا نبأُ ما سمعتُ. فثُرْتُ إلى الصّنم فكسّرتُه جُذاذًا وركبتُ راحلتي حتّى قَدِمْتُ على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله، فشرح اللّه صدري للإسلام فأسلمتُ. وقال مازنُ شعرا، ثم قال : يا رسول اللّه، إنّي امرؤٌ

مولعٌ بالطّرب وبالهَلوكِ من النّساء (الساقطات منهنّ) وشرب الخمر، وألحّتْ علينا السِّنون فأذهبن الأموال وأهزلن السّراري (جمع سُرِّيَّة وهي الأَمَةُ)، وليس لي ولد، فادعُ اللّه أن يُذْهِبَ عنّي ما أجد ويأتينا بالحَيَا (الرّخاء) ويهب لي ولدًا. فقال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله: اللّهمّ أبدِلْهُ بالطّرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلالَ وبالإثم والعُهْرِ عِفَّةً، وآتِه بالحَيَا وهَبْ له ولدًا. قال : فأذهب اللّه عنّي ما أجد وأُخْصِبَتْ عُمانُ وتزوجت أربع حرائر وحفظتُ شطر القرآن ووهب اللّه لي حيّانَ بنَ مازنٍ. ثم أنشأ يقول شعرا أي مازن. قال : فلمّا أتيتُ قومي أنّبوني وشتموني وأمروا شاعرا لهم فهجاني، فقلتُ : إن رددتُ عليه فإنّما أهجو نفسي، فرحلتُ عنهم فأتتني منهم زُلْفَةٌ (جمع كثير من قومه) عظيمة وكنتُ القَيِّمَ بأمورهم، فقالوا : يا ابنَ عمّ، عِبْنَا عليك أمرا وكرهنا ذلك، فإن أبيتَ فارجع وقُمْ بأمورنا وشأنُك وما تدين به. فرجعتُ معهم. وقال شعرا. قال مازنٌ : فهداهم اللّه بعدُ إلى الإسلام جميعا.

وقد روى الحافظ أبو نُعَيْمٍ في الدّلائل عن سعدِ بنِ عُبادَةَ قال : بعثني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله إلى حضرموتَ في حاجةٍ قبل الهجرة، حتّى إذا كنتُ في بعض

الطريق ساعةً من الليل فسمعتُ هاتِفًا يقول شعرا. ثمّ صاح بالهاتف آخرُ : يا خَرْعَبْ، ذهب بك العَجَبْ إنّ العجبَ كلَّ العجبْ بينَ زُهْرَةَ ويثرب. قال الهاتف : وما ذاك يا شاحِبْ ؟ قال : نبيٌّ السلام، بُعِثَ بخير الكلام إلى جميع الأنام فاخرجْ من البلد الحرام إلى نخيلٍ وأطام. قال : ما هذا النّبيُّ المرسل والكتابُ المُنْزَلْ والأمّيُّ المُفَضَّلْ ؟ قال : رجلٌ من ولدِ لُؤَيِّ بنِ غالبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ. قال : هيهاتَ، فاتَ هذا عن سِنِّي وذهب عن زمني، لقد رأيتُني والنَّضْرَ بنَ كِنانَةَ نرمي غرضًا واحدًا ونشربُ حَلَبًا باردا، ولقد خرجتُ به من دَوْحَة في غداةٍ شَبِمَةٍ (باردة) وطلع مع الشمس وغرب معها يروي ما يسمع ويُثْبِتُ ما يُبْصِرُ، ولئن كان هذا مِن ولده لقد سُلَّ السيف وذهب الخوف ودُحِضَ الزِّنا وهلك الرِّبا. قال : فأخبرني ما يكون ؟ قال : ذهبت السَّرَّاءُ والمجاعة والشّدّةُ والشجاعة إلا بقية في خُزاعةَ، وذهبت الضراء والبُؤْسُ والخُلُقُ المَنْقوس (الفاسد) إلا بقيّةً من الخزرج والأوس، وذهبت الخُيَلاءُ والفخر والنّميمة والغدر إلا بقية في بني بكر - يعني بكر هوازن - وذهب الفعل المُنَدِّمْ والعمل المُؤَثِّمْ إلا بقيّةً في خَثْعَمْ. قال : أخبرني ما يكون ؟ قال : إذا غُلِبت البَرَّة (عَلَمٌ للبِرّ) ولُطِمَت الحُرَّة فاخرج من بلاد الهجرة، وإذا كُفَّ

السلام وقُطِعت الأرحام فاخرج من البلد الحرام. قال : أخبرني ما يكون ؟ قال : لولا أذنٌ تسمع وعينٌ تلمع لأخبرتك بما يُفْزِعْ. قال سعد : ثمّ صَرْصَرَ صرصرة كأنّها صرصرة حُبلى، فذهب الفجر، فذهبتُ لأنظر فإذا عَظايَةٌ (دُوَيْبَة) وثعبان ميتان. فما علمتُ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث. وفي رواية أن هذا كان إثر بيعة العقبة.

وقال حاتم بنُ إسماعيل عن أبي عبد اللّه بنِ ساعِدة الهُذَلِيّ قال : كنّا عند صنمنا سُواعٍ وقد جلبنا إليه غنما لنا، مائتي شاة قد أصابها جَرَبٌ، فأدنيناها منه لنطلب بركته، فسمعتُ مناديا من جوف الصنم ينادي : قد ذهب كيدُ الجِنِّ ورُمينا بالشُّهُبِ لنبيٍّ اسمه أحمدُ. قال : فقلتُ : غَوَيْتُ واللّه. فصرفتُ غنمي مُنْجِدًا إلى أهلي، فلقيت رجلا فخبّرني بظهور النّبيّ صلّى اللّه عليه وعلى آله.

وقال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ يحيى الأمويُّ في مغازيه عن شيخ من جُهَيْنَةَ قال : مَرِضَ منّا رجل مرضا شديدا فثقُلَ حتّى حفرنا له قبره وهيأنا أمره، فأُغْمِيَ عليه ثمّ فتح عينيه وأفاق، فقال : أحفرتم لي ؟ قالوا : نعم. قال : فما فعل الفَضْلُ

؟ وهو ابنُ عمٍّ له. قالوا : صالحٌ مرَّ آنفا يسأل عنك. قال : أما إنّه يوشك أن يُجعل في حفرتي، إنّه أتاني آت حين أغمي عليّ فقال : اِبْكِ هُبَلْ، أما ترى حفرتَك تُنْتَثَلْ وأمُّك قد كادت تثكل ؟ أرأيتُك إن حوّلناها عنك بالمحول ثمّ ملأناها بالجَنْدَل (الحجارة) وقذفنا فيها الفضل الذي مضى فأجزأك وظنّ أن لن يفعل، أتشكر لربك وتصلّ وتدع دين من أشرك وضلّ ؟ قال : قلتُ : نعم. قال : قُمْ قد بَرِئْتَ. قال : فَبَرِئَ الرّجل ومات الفَضْلُ فجُعِل في حفرته. قال الجُهَنِيُّ : فرأيتُ الجُهَنِيَّ بعد ذلك يصلّي ويَسُبُّ الأوثان ويقعُ فيها.

وقال الأمويُّ : حدّثنا عبدُ اللّه قال : بينما عمر بنُ الخطّاب رضي اللّه عنه في مجلس يتحدّثون عن الجنِّ فقال خُرَيْمُ بنُ فاتِكٍ الأسْدِيُّ : ألا أحدّثك كيف كان إسلامي ؟ قال : بلى. قال : إنّي يومًا في طَلَبِ ذَوْدٍ لي أنا منها على أثرٍ، تَنْصَبُ وتَصْعَدُ، حتّى إذا كنت بأبْرَقِ العراق أنَخْتُ راحلتي وقلتُ : أعوذ بعظيم هذه البلدة أعوذ برئيس هذا الوادي. فإذا بهاتف يهتف بي :ويحك عُذْ باللّه ذي الجلال والمجد والنَّعْماءِ والإفضالثمّ اتلُ آياتٍ من الأنفال ووحّد اللّه ولا تبالي. قال : فذُعِرْتُ ذُعْرا شديدا ثمّ رجعتُ إلى نفسي فقلتُ : يا أيها

الهاتف ما تقول، أَرَشَدٌ عندك أم تضليل، بيّن هداك اللّه ما الحَوِيلُ (المرام). قال : فقال : هذا رسول اللّه ذو الخيرات، بِيَثْرِبٍ يدعو إلى النّجاة، يأمر بالبرِّ وبالصّلاة، ويَزَعُ النّاس عن الهَنَاتِ. قال : قلتُ له : واللّه لا أبرح حتّى آتِيَهُ وأُومِنَ به. فنصبتُ رجلي في غَرْزِ راحلتي وقلتُ :أرشدني أرشدني هُدِيتَ، لا جعتَ ما عشتَ ولا عَريتَا، ولا برحتَ سيّدًا مَقيتَا، لا تُؤْثِرِ الخيرَ الذي أُتيتَا، على جميعِ الجنِّ ما بقيتَا. فقال :صاحبك اللّه وأدّى عنك رَحْلَكَا، وعَظَّمَ الأجرَ وعافى نفسكَا، آمِنْ به أَفْلَجَ ربي حَقّكَا (أظهره وأثبته)، وانصُرْهُ أعزَّ ربي نصركَا. قال : قلتُ : مَن أنت عافاك اللّه حتّى أُخبره إذا قدمت عليه ؟ فقال : أنا مالكُ بنُ مالكٍ وأنا نقيبه على جنّ نَصِيبِينَ، وكفَيْتُ إبِلَكَ حتّى أَضُمَّها إلى أهلك إن شاء اللّهُ. قال : فخرجتُ حتّى أتيتُ المدينة يوم الجمعة والنّاس أرسالٌ إلى المسجد، والنّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله على المنبر كأنّه البدرُ يخطُبُ النّاسَ، فقلتُ : أُنِيخُ على باب المسجد حتّى يصلِّيَ وأدخلُ عليه فأسلّمُ وأخْبِرُه عن إسلامي. فلمّا أنَخْتُ خرج إليّ أبو ذرٍّ، رضي اللّه عنه، فقال : مرحبا وأهلا وسهلا، قد بلغنا إسلامك فادخُل فصَلِّ. ففعلتُ، ثمّ جئتُ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله فأخبرني بإسلامي، فقلتُ : الحمد لله. قال : أما إنّ

صاحبك قد وَفَّى لك وهو أهل ذلك وأدّى إِبِلَكَ إلى أهلك.
وفي رواية أنّ أبا بكر الصّديق رضي اللّه عنه خرج إليه، فقال له خُرَيْمٌ : لا أُحْسِنُ الطُّهورَ فعلّمني. فدخل المسجد فرأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وعلى آله كأنّه البدرُ وهو يقول : ما من مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثمّ صلّى صلاةً يحفظها ويعقلها إلا دخل الجنة. فقال له عمر، أي لخُرَيْمٍ : لَتَأْتِيَنِّي على هذا بِبَيِّنَة أو لأُنَكِّلَنَّ بك. فشهد له شيخُ قريشٍ عثمانُ بنُ عفان، فأجاز شهادته.

تم بحمد الله وحده الجزء الأول

من تهذيب تاريخ ابن كثير